

الدُّهْيَةُ

الدُّهَيْبَةُ - ١

عن أبي سعيد رضى الله عنه ، قال :

بعث على رضى الله عنه إلى النبی - صلى الله عليه وسلم - بدهيبيّة ،
فقسمها بين الأربعة ، الأقرع بن حابس الحنبلیّ ثمّ المجاشعی ، وعُيَيْبَةُ بن بدر
الفرزری ، وزید الطائی ، ثمّ أحد بنی نُبّهان ، وعلقمة بن عَلّثة العامری أحد بنی
كلاب . فغضبت قريش والأنصار قالوا : يعطى صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ قال :
إنما أتألفهم . فأقبل رجل غائر العينين مُشرف الوجنتين ناتيء الجبين كتّ اللحية
مخلوّق ، فقال : اتق الله يا محمد ، فقال : من يطع الله إذا عصيت ؟ أيأمنني الله
على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟

فسأله رجل فمنعه . فلما وليّ قال : إن من ضئضي هذا - أوفى عقب هذا -
قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مرق السهم من الرميّة ،
يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لأنّ أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عادٍ"
(أخرجه البخاري)

.....

علاقة المسلمين بالإسلام قديماً وحديثاً محور وجودهم ومستقبلهم ، وتؤثر
هذه العلاقة سلباً وإيجاباً في حاضرهم وحضارتهم . ولا أحسب تاريخهم منذ بدء
الرسالة ونزل الوحي إلا استجابة لهذه العلاقة ، ونتيجة لها .
والقصة التي بين أيدينا تكشف عن هذه العلاقة في بعض المناسبات ،
ولكنها تؤكد معطياتها في المناسبات كلّها

لقد بعث على بن أبي طالب - رضى الله عنه - إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -
بذُهَيْبَة وهى تصغير كلمة ذهبه ، وتعنى القطعة من الذهب ؛ وربما كانت شيئاً آخر
من غنائم الحرب .

وكان على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقسمها بين المجاهدين
مكافأة لهم على ما بذلوه؛ وتشجيعاً ، وكأنها أوسمةً يوزعها القائد على الجند .
وقد وُرع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذُهَيْبَة ، على فريق من المسلمين
دون آخر. الفريق الأول يضم نفرًا من الذين دخلوا الإسلام حديثاً من أهل نجد،
وهم فرسان صناديد شجعان منهم الأقرع بين حابس والمجاشعى وعيينه بن بدر
الفرزرى وزيد الطائى .. وقد تحدثنا عن بعضهم وقصة إسلامه أو بعض مواقفه فى
الإسلام فى أماكن أخرى، وكان إسلامهم بصفة عامة متأخراً وارتبط بمواقف معينة.
الفريق الآخر يضم المسلمين المجاهدين من قريش والأنصار. وهؤلاء لم يكن
لهم نصيب من الذُهَيْبَة وغضبوا لحرمانهم منها ، وتساءلوا بما يشبه الإنكار : يعطى
صناديد نجد ويدعنا ؟

والتساؤل كما نرى فيه اعتراف بأهمية أهل نجد الذين أعطاهم الرسول
- صلى الله عليه وسلم - وقسم بينهم الذُهَيْبَة: فقد وصفهم المسلمون من قريش
والأنصار بأنهم " صناديد " أى سادة شجعان ، ومعنى ذلك أن لهم وجوناً مؤثراً فى
قومهم ، يسمعون لكلامهم ، وينفذون إرادتهم ، ويمضون وراءهم ، وفقاً للنظام
القبلى السائد فى بيئتهم البدوية أو الصحراوية الصعبة. وهذا يفسر سبب اختصاصهم
بالقسمة من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد رأى - وفقاً لرؤيته على
المعترضين على التقسيم - أن يتألفهم ويكسبهم إلى جانب الإسلام، ويثبت قلوبهم
حتى يتمكن منها الدين الحنيف .. فقد كانوا حديثى عهد بالإسلام ، لم يتعمقوا فيه ،

ولم يستوعبوا منهجه استيعاباً كاملاً، أو لم يدخل إلى قلوبهم تماماً. لذا كانت إجابة الرسول- صلى الله عليه وسلم- قاطعة وواضحة: " إنما أتألفهم "

وتأليف القلوب أمر شرَّعه الإسلام في القرآن الكريم ، وجعل المؤفَّة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة ، أو جعلهم من مستحقى الزكاة، وقد جاء القرآن الكريم وبيَّن مصارف الزكاة ومنها المؤفَّة قلوبهم فى قوله تعالى :-

" إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (سورة التوبة الآية ٦٠)

وقد كان تأليف القلوب فى صدر الإسلام أمراً حيويّاً بالنسبة للدعوة وللدولة الإسلامية الوليدة لأنه يسند دعائمها، ويثبت أركانها، ويمنعها من التعرُّض للهزَّت والتفتت ، وخاصة إذا كان للمؤفَّة قلوبهم تأثير واتباع كثيرين .. فتأليف الزعماء والرؤساء والسادة من صناديد نجد وغيرها ، يعنى بالضرورة تأليف هؤلاء الأتباع وضمان عدم تمرُّتهم حتى يفقهوا الدين فقها شاملاً ، و تنتشر به قلوبهم وأفئدتهم ، ثم يتحركون من أجل الإسلام وفقاً لبواعث داخلية وإيمانية .

ثم إن عملية التوزيع التى قام بها النبى - صلى الله عليه وسلم - تأليفاً للقلوب تكشف عن جانب آخر من النفس البشرية التى تقدم " الأنا " على " الأخر " أو " الذات " على " الغير " ، فكل إنسان يحب نفسه أولاً ، و يتمنى لها الحصول على ما تريد قبل غيرها ، وقد ورد فى القرآن الكريم وصف الإنسان :

" وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " (سورة العاديات الآية ٨)

والخير هو المال وما يشبهه من مقومات الحياة المادية ، وبالتأكيد ، فإن غضب قريش والأنصار كان سببه الأول هو حب الخير ، الذى أخطأهم كما تصورا ،

وتجاوزهم إلى غيرهم من حديثى العهد بالإسلام ، بينما هم لها سوابق عديدة تعرّز مكائنتهم فى الإستحقاق ، فقد هاجروا إلى الحبشة والمدينة من قبل وتحملوا العناء والمشقات فى مكة على أيدي المشركين ، ثم إنهم قاتلوا فى الغزوات وخرجوا فى السرايا ... ويرى أنهم يستحقون نصيباً من الذهبية .

الدَّهْيَبَةُ - ٢

رأينا فى حديث أبى سعيد - رضى الله عنه - أن قريشا والأنصار قد غضبوا لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقسم لهم من الذهبية ، وخصَّ بها نفراً من صناديد نجد وفرسانها - وكان تفسير الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما فعله أنه يؤف قلوب هؤلاء الصناديد .. ولكن رجلاً خرج من بينهم ليقول: اتق الله يا محمد .. و نكمل فيما يلى أحداث القصة النبوية .

.....

.....

لقد كان غضب قريش والأنصار نابغاً من نزعة إنسانية فطرية تحب لنفسها أولاً الخير، ثم إن قريشاً والأنصار لهم سوابق فى الإسلام تجعلهم أحق بهذا الخير قبل غيرهم ومع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم أنه فعل ذلك ليؤف قلوب صناديد أهل نجد ؛ فإن بعضهم لم يقتنع بما قاله النبى الكريم عليه الصلاة والسلام ، وخرج من بينهم رجل يبدو ومن هيئته أنه أقلهم شأنًا ، فهو كما يصفه راوى الحديث " غائر العينين مشرف الوجنتين نأتىء الجبين كئ اللحية مخلوق " أى إن ملامح وجهه بارزة فى غير اتساق ، وهيئته تدل على تواضعه ، ولكنه وجد فى نفسه الجرأة ليقول :

" اتق الله يا محمد "

وهذا القول يعنى ضمناً أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد ظلّمه و ظلّم أصحابه وإذا عرفنا أن النبي لا ينطق عن الهوى ، ولا يفعل إلا ما يؤمر به ، من خلال الوحي أو الإلهام الإلهي ، فإنه لن يظلم هذا الشخص أو غيره ..
بيد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستقبل قول الرجل بهدوء ، ويسأله قائلاً: من يطع الله إذا عصيت ؟ أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني؟
والسؤال في جزئه الأول يقوم على الإقناع الهادئ البسيط : من يطع الله إذا عصيت؟

أى من هو الذى يمكنه أن يطيع ربّه ويستجيب لأوامره و نواهيه ، إذا كان النبي المعصوم - عليه الصلاة والسلام - يخالفه و يظلم أصحابه ؟
إن السؤال الهادئ البسيط، يحمل فى طياته نوعاً من اللوم والتقريع والإنكار لمن قال لنبيه المعصوم - صلى الله عليه وسلم : اتق الله يا محمد .

و الجزء الثانى من السؤال : يحمل استنكاراً مباشراً للقوم ، وليس للرجل الذى نطق بمقولة : اتق الله يا محمد .

الجزء الثانى يحمل الاستنكار المباشر فإنه يتضمن إقناعاً منطقياً : أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني ؟

وهذا الإقناع المنطقي يخاطب العقل ، بعد أن خاطب الجزء الأول من السؤال الوجدان والعاطفة " من يطع الله إذا عصيت ؟"

إن الحق سبحانه يأمن نبيه - صلى الله عليه وسلم - على تبليغ رسالته إلى أهل الأرض جميعاً فيقدم لهم القرآن الكريم والهدى النبويّ، فيستمعون إليه ويهتدون به و يصدقونه فيما كل ما يأتى به من عند الله .. فإذا كان الحق سبحانه يأمنه على أهل الأرض ، فلماذا أنتم يا أصحابي لا تأمنوني و تغضبون على لأنى اختصصت

قوماً بالذهيئة دونكم؟ لقد خرجتم على منهج الطاعة الذي رسّخه الإسلام في التلقى عن المشرّع الأكبر والنبي الأعظم - صلى الله عليه وسلم .

منهج الطاعة ، هو استقبال أمر الله بالرضا والقبول والتنفيذ ، لأنه يقوم على الإيمان الحقيقي بالدين والتوحيد ، والوحي ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - والخروج على هذا المنهج هو تمرد على الإيمان بالدرجة الأولى ، أو خلل في الاعتقاد ، يؤكد ذلك أن رجلاً بعد أن دافع النبي - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه ، ذهب إليه وطلب منه أن يقسم له . وكان الرجل لم يقتنع أو لم يسمع ما قيل حول عملية التقسيم أو التوزيع وأنه أمر له غاية وهدف ، لذا فقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - "إن من ضئضىء هذا - أو فى عقب هذا - قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مرّوق السهم من الرميّة ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد".

الإيمان يرتبط بفهم القرآن والعمل به ، أما مجرد القراءة والتلاوة دون فهم أو تطبيق فإنه يعنى أن الأمر يمثل خطيراً فى العقيدة يستوجب التوقف والتساؤل ، لأن القوم كما عبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام "يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم " أى لا يذهب إلى حيز التنفيذ والتطبيق أى مجرد كلام فى الهواء لا تأثير له أو تأثر به ، وهذا سلوك نفاقى لا يقرّه الإسلام ، الذى لا يرغم أحداً على قبوله ، ولكنه فى الوقت نفسه يرفض أن يتخذ البعض غطاءً أو راية لا مدلول لها .. وهذا البعض فى كل الأحوال يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرميّة ، أى يخرج من الدين بسرعة السهم ، أو بسهولة مرّوق السهم من الطريدة المطلوبة للصيد ، وهنا يكمن الخطر على الدين . إنه قتل لأهله وإحياء لعباد الأوثان ..

والدليل على خطورة هذا البعض أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - توعدهم لو أدركهم بالقتل والقضاء عليهم قضاء مبرماً بحيث لا يبقى لهم أثر، كما حُكم على عاد بالإبادة التامة .

" فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ " (سورة الحاقة الآية ٨)

أى لم يبق لهم وجود ، مما يدل على خطورة هؤلاء المنافقين الذين يظهرين الإسلام ولا يعملون به ، و يقرءون القرآن ولا يجاوز حناجرهم ، و يقتلون المسلمين و يدعون الكافرين ، إنهم خارجون عن طاعة الله و طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم .

أبواب الرحمة

أبواب الرحمة - ١

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

" كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال : لا ، فقتله فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلّ على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟

فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت؛ فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

فقال ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ... " (متفق عليه)

.....

يتعرض المسلم فى حياته اليومية والإنسانية إلى أخطاء أو تقصير فى حق نفسه أو ربه أو مجتمعه ، مما يترتب عليه أن يتحمل ذنباً تحسب فى صفحة سيئاته ويحاسب عليها فى الدنيا أو الآخرة ، ولأن الإسلام حريص على بناء المسلم وتصفيه هذا البناء من عوامل الضعف والخلل فقد شرع التوبة ، وهى الرجوع إلى الحق والتخلص من الذنب وإعادة الحقوق إلى أصحابها أو طلب العفو والتسامح معهم .
و التوبة واجبة بنص القرآن الكريم و السنة المطهرة ، و إجماع الأمة .

قال تعالى :-

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ" (سورة التحريم من الآية ٨)

وقال تعالى : -

"...وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة النور من الآية ٣١)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " والله انى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة " وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعير، وقد أضلّه فى أرضٍ فلاة".

التوبة إذا واجبة ، وهى مقبولة- إن شاء الله- إذا أخلص صاحبها فى توبته وندم على ما فرط منه ، و أعاد الحقوق إلى أصحابها أو طلب العفو منهم ، وهو ما يقتضى أن نشجع على التوبة ونخضّ الناس جميعاً عليها، ونبت فىهم الأمل حتى لا يقنطوا من رحمة الله، ولا يستسلموا للذنوب والمعاصى والشرّ، وتتطهر نفوسهم من الشوائب والأدران، ويُقبلوا على الحياة برُوح طيبة قوية تعمل لصالح صاحبها وصالح الناس أجمعين . أما الذين يغلقون أبواب التوبة، وينشرن اليأس والإحباط فإنهم يخالفون المنهج الإسلامى الذى يقوم على الرحمة وفتح أبواب الأمل ليجدد الإنسان نفسه ، ويبدأ من جديد حياة كريمة طيبة، تبت الخير، وتنشر النور فى كل مكان .

والقصة التى يتضمّنها الحديث الذى بين أيدينا تقدم لنا مثلاً عملياً، يكشف الفارق بين نوعين من العلماء ، الأول يغلق أبواب الرحمة والأمل أمام الراغبين فى التوبة ، والأخر يفتحها ويساعد عليها .

ويحكى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قصة رجل من الأقوام السابقة ارتكب ذنباً كبيراً ، تنوء بها الجبال ، فقد قتل تسعة وتسعين نفساً ، أى رجلاً وامرأة ، وأراد أن يتوب ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدلّوه على " راهب " ، أى عالم دين منقطع للعبادة والمعرفة وفق ما كان سائداً فى الأزمنة القديمة ، فذهب

إليه ، ووصل عنده و حكى له أنه قتل تسعا و تسعين نفسا فهل له من توبة ؟ ولكن
الراهب أجابه بالإجابة الصادمة المانعة وهى نفى التوبة ، أى لا توبة له ..
كان منطلق الراهب أن القتل جريمة عظمى ، وفى القرآن الكريم أن من قتل
نفسا بغير نفس ، فكأنما قتل الناس جميعاً .

قال تعالى :-

"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ
فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا....." (سورة المائدة من الآية ٣٢)

هذا المنطلق هو الذى دفع الراهب إلى سدّ أبواب الأمل فى رحمة الله ، أمام
الرجل الذى قتل تسعاً و تسعين نفساً ، فما كان من الرجل إلا أن قام بقتل الراهب
أيضاً ، و أكمل به مائة نفس قتلها ، بعد أن يؤس من قبول توبته ..
ولأن الرجل كان راغباً فى التوبة الحقيقية ، فقد واصل البحث عن عالم آخر
أكثر علماً من الراهب الذى قتله و أكمل به المائة ، فدلّوه على رجل عالم ، ولا نعلم له
فى الحديث الشريف صفة أخرى غير صفة العلم وحدها ، فهو ليس راهباً أو حبراً
أو نحو ذلك ، و كانت إجابته مبشرة ، حيث فتح أبواب الأمل أمام الرجل القاتل ،
و أفاد أن التوبة تقبل منه .. ثم تساءل : من الذى يقف أو يحول أو يمنح الرجل من
التوبة ؟

بل إنه لم يكتف بذلك ، ووجه الرجل إلى أرض طيبة بها أناس يعبدون الله ،
وأوصاه أن يعبد الله معهم ، ولا يرجع إلى أرضه ، لأنها أرضٌ سوء ، و كأن هذا العالم
يشير بطريقة و أخرى إلى طبيعة البيئة التى يعيش فيه الإنسان و يتربى، فإن كانت
صالحة أنشأت إنساناً صالحاً،و إن كانت سيئة قدمت إنساناً سيئاً..وانطلق الرجل
التائب إلى الأرض الجديدة ، ولكن الموت فاجأه فى الطريق !

أبواب الرحمة - ٢

فى حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - اختصمت الملائكة حول التائب الذى قتل مائة نفس ، وتنازعت ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب ، ولكل منهم حجة " فأتاهم ملك فى صورة آدمى: " فجعلوه بينهم : فقال : قيسوا ما بين الأرضين ؛ فإلى أيتها كان أدنى فهو له ، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أريد ، فقبضته ملائكة الرحمة " .

وفى رواية ؛ فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها " وفى الصحيح : " فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى ، و إلى هذه أن تقربى ، و قال : قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له " .

.....

كان الرجل المذنب الذى قتل مائة نفس ، آخرها الراهب الذى أغلق أبواب الرحمة فى وجهه ، وأخبره أنه لا توبة له ، مخلصاً فى توبته ، وبمجرد أن أخبره العالم أن توبته مقبولة - إن شاء الله - وأن لا أحد يحول بينه وبين التوبة ؛ فإنه توجه من فورهِ إلى البلدة الصالحة ليعيش بين أهلها الطيبين ، بعيداً عن المعاصى والذنوب و قتل الأنفس كما جرى له فى القرية السيئة ..

ولكنه وهو فى طريقه إلى القرية الصالحة التى يعبد أهلها الله بإخلاص وتفان ورضا ، أدركه الموت ، وهنا تنازعت ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب . وكانت حجة ملائكة الرحمة أن الرجل جاء تائباً ، مقبلاً على الله تعالى بقلبه ، أى جاء تائباً توبة نصوحاً خالصة لله تعالى ، لذا فمن حقهم أن يقبضوا روحه لينعم بفضل الله .

بيد أن ملائكة العذاب كانت لهم حجة أخرى ، وهى أن الرجل لم يعمل خيراً قط ولذا لا يستحق الرحمة ، بل يستحق العذاب .

وهنا تتدخل عناية الله ورحمته ، حيث يظهر لهم مَلَكٌ على هيئة إنسان آدمى ، فيحكّمونه بينهم ، أى يجعلونه حكماً بينهم ، وبعد أن استمع إلى حجة كل فريق ، اقترح عليهم ، أن يقيسوا المسافة بين المكان الذى مات فيه الرجل أوسيموت فيه ، وبين كل من القريتين: الصالحة والطارحة، فإذا كان أقرب إلى القرية الطالحة أو قرية السوء ، فهو من حق ملائكة العذاب يقبضون روحه ويدخل النار..

وقامت الملائكة بقياس المسافة بين القريتين ، فوجدوا الرجل أقرب إلى القرية الصالحة ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وكان من المقبول توبتهم بإذن الله .

تتحدث الروايات التى نقلت إلينا حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن المسافة بين القريتين كانت أقرب إلى القرية الصالحة بشبر واحد . أى إنها كادت تكون متساوية تماماً ، لولا هذا الشبر الذى يمثل مسافة صغيرة جداً ، ولكنها حسمت الأمر وأدخلت الرجل فى رحمة الله الواسعة التى لا تضيق بعباده التائبين المخلصين .

وإذا كانت الرؤية الأخرى تشير إلى أن الله تعالى أوحى إلى القريتين ، بأن تتقرب الصالحة وتتباع الطالحة ، ليكون القياس إلى الصالحة أقرب ؛ فهذا من فضل الله العظيم ، ورحمته التى لا تنفد ، من أجل المغفرة والعفو عن عبد رغب فى التوبة رغبة حقيقية وأخلص لربه إخلاصاً حقيقياً .

وهو ما يؤكد أن باب التوبة مفتوح دائماً للمخلصين ، وأن المولى سبحانه يرحب بعودة عبده عن الخطايا والذنوب ، ويفرح بها ، وقد رأينا أن الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضلّه فى أرضٍ فلاة .. فمن يسقط من على بعيره، فى الصحراء المقفرة التى لا يهتدى فيها إلى الطريق الذى يوصله إلى موطنه أو مأمنه ، ثم يهتدى إلى المكان الذى يريد ، فإن فرحته تكون كبيرة ، حيث هى فرحة النجاة من الضياع ، وكذلك تكون فرحة الخالق بالخلق التائب ، بل هى أكثر من ذلك وأكبر.

ولا ريب أن فتح أبواب الرحمة أمام الناس ، وحثهم على التوبة خيرٌ يصبُّ فى رصيد المجتمع والأمة ، ويقلِّل من عناصر الشر والخلل والضعف . وفى كل الأحوال علينا أن نشير إلى أن قوماً يستنكفون من التوبة والاستغفار ، وخاصة فى بعض المجالات والمهن ، حيث يقولون ، وممّ نتوب ؟ هل عملنا ما يقتضى التوبة ؟ ونقول لهم : إن نبينا - صلى الله عليه وسلم - كان يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم سبعين مرّة ، وهو الذى غفر له ربه ما تقدم من ذنبه ، ووُصِفَ أنبياءُ الله أو بعضهم بالأوَّابين أى التوابين ، وخاطبنا الله عز وجل بقوله تعالى على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم :

"وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ"
(سورة هود الآية ٣)

التوبة مع الاستغفار ، تطهير دائم للنفس ، وتذكير لها بقدرته الخالق سبحانه ، فضلاً عن الإرتباط به والاتصال المستمر معه :

"فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ" (سورة البقرة الآية ١٥٢)

بالطبع ، فإن التوبة التى لا يقلع صاحبها عن الذنب أو المعصية ، ليست توبة حقيقية ، وكذلك التوبة عند الموت ، والتوبة مع الكفر :

"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" (سورة النساء الآية ١٧)

جلیب



جليبيب - ١

عن أبي بركة الأسلمي - رضى الله عنه - قال :

كانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم ، لم يزجّها حتى يُعلم النبي - صلى الله

عليه وسلم - أنه فيها حاجة أم لا ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجل من الأنصار ذات يوم :

" زوّجني ابنتك " . **قال** : نعم حبّاً وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين .

قال : "إني لست أريدها لنفسى " . قال : فلمن يا رسول الله ؟ !

قال : " لجليبيب " ، فقال : يا رسول الله ، أشاور أمهًا ، فأتى أمهًا فقال :

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب ابنتك ، فقالت نعم ونعمة عين .

فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، وإنما يخطبها لجليبيب .

فقالت أجليبيب ..؟! ثلاثاً . لعمر الله لا نرّجّه ، فلما أراد أن يقوم ليأتى

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية .

- من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها ، فقالت : أترتّون على رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - أمره ؟ ادفعوني . فإنه لن يضيعنى

(حديث صحيح أخرجه أحمد و مسلم و آخرون)

.....

.....

تثير هذه القصة النبوية أكثر من قضية تتعلق ببناء المجتمع الإسلامى ،

وتقويته . ولعل أبرزها قضية الزوّاج ، وقضية الجهاد فى سبيل الله والشهادة ،

وقضايا أخرى مثل حبّ الأنصار لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومشاورة

الرجل لزوجه - ومسألة الطبقة فى المجتمع .

يقول راوى الحديث أبو بركة الأسلمة - رضى الله عنه : إن الأنصار كانوا -

لا يزوجون المرأة الأيم ، أى الأرملة التى مات عنها زوجها أو المطلقة ، إلا إذا شاوروا

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويسألونه : أنه فيها حاجة أم لا ؟

معنى ذلك أنهم كانوا يشاورونه - لعله يريد أن يزوجه أحداً من أصحابه أو غير ذلك . فالاستئناس برأيه - صلى الله عليه وسلم - تعبير عن حبه لهم وإخلاصهم لما جاء به ، وإيمانهم بأن توجيهه - صلى الله عليه وسلم - هو الصواب ، حيث لا ينطق عن الهوى ، سواء تعلق الأمر بأمور الدين أو الدنيا .. ومنها بالضرورة موضوع الزواج .

و تقدم لنا القصة النبوية حدثاً معتاداً فى المجتمع الإسلامى، و كل المجتمعات وهو طلب الرجل الزواج من امرأة .. ولكن هذا الحدث المعتاد فى القصة التى بين أيدينا ، يخرج عن حالة الاعتياد ، إلى حالة استثنائية ، حيث يطلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أحد الأنصار أن يزوجه ابنته . فيظن الأنصارى أن النبى - صلوات الله عليه و سلامه - يطلبها لنفسه ، فيطير من الفرح و السرور ، ويعبر عن ذلك بقوله :

" نعم حبا و كرامة يا رسول الله . و نعمة عين "

أى إن هذا الأمر يمثل له أمراً محبوباً ، و تكريماً للمطلوب و قرّة عين له .

بيد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يفاجىء الرجل ، بأنه لا يطلب الفتاة لنفسه ، ولكنه يطلبها لشخص آخر ، اسمه "جليبيب" ، وهنا تتراجع الفرحة التى شعر بها الأنصارى و يبهت سروره ، و يجيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه سيشاور أمها فى الأمر ، فلها رأى ، و هى شريكته فى إدارة الأسرة . فالمشاورة الأسرية مطلوبة ، و للمرأة دور لا يمكن إنكاره ، سبق إليه الإسلام العالم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان .

بيد أننا فى هذه القصة نصطدم بالعقدة القصصية الرئيسية ، و هى النظرة الطبقيّة التى ينظر بها المجتمع إلى بعض أفراد البسطاء - فجليبيب - و كما يبدو من اسمه و تصغيره ، يظهر إنساناً بسيطاً فقيراً لا حسب له ولا جاه ولا مال . ولكن

الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتبنى قضية زواجه تطبيقاً لنظرة الإسلام إلى الأشخاص ودينهم وسلوكهم وليس إلى أموالهم وأنسابهم... فالتطبيقية في الإسلام ليست مثل التطبيقية في المجتمعات غير الإسلامية، التي تجعل المال معبواً ومتحكماً في أقدار الرجال والنساء... التطبيقية في الإسلام - إذا جاز التعبير - تقوم على أساس التقوى، والتفاضل يكون على أساس الإيمان.. أما ماعدا ذلك فأمر ثانوى وهامشى.. وهذا ما يتضح في توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - للمسلمين .
"إذا جاءكم من ترضون دينه فروجوه"، فالدين أساس ثابت راسخ، وهناك الحديث الشريف الذائع عن المرأة التي تنكح لحسبها ونسبها ومالها ودينها" فافظر بذات الدين تربت يداك "...

إذاً نحن أمام منهج إسلامى فى الزواج ، لا يقرّ العسف الذى تفرضه الأعراف والتقاليد غير الرشيدة ، التى تعتمد على المظهرية والاستعراض ، وتحمل أهل العروسين ما لا طاقة لهم به ، سواء تمثل ذلك فى السكن أو الأثاث - أو العفش كما يطلق عليه العامة - أو المهر والشبكة والحفلات الصاخبة التى يغلو البعض فى طلبها أو تنفيذها إلى درجة التعجيز أو السفه ، وهو ما يرفع سنّ الزواج ، ويشيع العنوسة ، ويجعل الشباب يعيش محنة مزدوجة بين عدم إشباع رغباته الطبيعية وعجزه عن تحقيق ما تفرضه الأعراف والتقاليد غير الرشيدة... وإذا قرأنا هذه المحنة المزدوجة فى ظل ما تشييعه القنوات الفضائية والأرضية للتليفزيونات المحلية والعالمية من انحلال وإباحية وصور خيالية للحياة المرفهة ؛ أدركنا عمق المسألة التى تحيط بشبابنا المعاصر ذكوراً وإناثاً . وهو ما لا يرضاه الإسلام .

جليبيب - ٢

ترفض الفتاة ابنة الأنصارى ، رأى أمها الرافض من زواجها من "جليبيب " ،
وتقول لأمها وأبيها: أترنّون على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمره؟ ادفعونى،
فإنه لن يضيعنى .

فانطلق أبوها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره . قال : شأنك
بها فزوّجها جليبيبا ، وخرج -أى جليبيب- مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم -
فى غزاة له .

فلما أفاء الله عليه ، قال لأصحابه : " هل تفتقدون من أحد ؟ " .

قالوا : نفقد فلاناً ، ونفقد فلاناً . قال : " انظروا هل تفتقدون من أحد ؟ "

قالوا : لا .

قال : " لكنى أفقد جليبيبا ، فاطلبوه فى القتلى " .

فطلبوه ، وجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم قتلوه ، فأتاه النبى -صلى الله
عليه وسلم- فقام عليه ، فقال : "قتل سبعة، ثم قتلوه، هذا منى، وأنا منه، هذا منى وأنا
منه "

مرتين أو ثلاثاً ، ثم وضعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ساعده ،
وحفر له ، ماله سرير إلا ساعد النبى -صلى الله عليه وسلم- ثم وضعه فى قبره ، ولم
يذكر أنه غسله .

.....

رأينا أن الأنصارى ، أجاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين عرف
أنه يطلب ابنته للزواج من جليبيب ؛ وليس له ، أنه سيشاور أمها . وكان رأى الأم
رفضاً قاطعاً فيه استنكار : " أجليبيب ؟ " وأكدت هذا الاستنكار ثلاث مرات
بالقسم قائلة : لعمر الله ، لا تزوجه ..

وهذا الرفض بسبب تواضع حال جليبيب وفقره . ولكن الفتاة أو الجارية – كما كانت تسمى التي لم تتزوج آئذ – ترفض رفض أمها وتقول : أتردون على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمره . ادفعونى . فإنه لن يضيعنى . أى إن الفتاة أدركت بإيمانها أن الرسول – صلى اله عليه وسلم – لا يريد لها إلا خيراً ، ولهذا صممت على قبول الزواج من جليبيب . وهنا تتبدى قيمة الزوجة المتدينة المؤمنة بالإسلام قولاً وعملاً ، حيث نالت شرف أن تكون فيما بعد زوجة شهيد ، قال عنه رسول الله – صلوات الله عليه وسلامه – " هذا منى وأنا منه " مؤكداً ذلك أكثر من مرة .

ونلاحظ هنا ، أن الأنصارى أخبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما جرى من زوجه وابنته ، فقال له : شأنك بها . كأنه أقرّ الابنة على رأيها . وعلى هذا فقد زوّج الأنصارى الفتاة من جليبيب ... وانتهى الأمر عند ذلك .

ولكن أمر جليبيب لم ينته ، فقد خرج فى غزوة مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبعد انتهاء القتال ، قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه : " هل تفقدون من أحد؟ " وهو أمر طبعى بعد المعارك ، أن يبحث القائد عنم فُقد من جنوده بالاستشهاد أو الأسر أو غير ذلك .

وقد ذكر الصحابة أسماء من فقدوهم دون أن يذكرها " جليبيبا " ، وطلب منهم أن يتفقدوه فى القتلى أو الشهداء . وتأمل قوله – صلى الله عليه وسلم – "كنى أفقد جليبيبا" ولم يقل إنكم تفقدون جليبيباً ، مما يدل على قربته منه واهتمامه به ، ومنزته الخاصة عند الحبيب – صلى الله عليه وسلم .

وتكون المفاجأة للصحابة ، أنهم يتفقدون القتلى ، فيجدون "جليبيباً" يرقد شهيداً و بجواره سبعة من قتلى العدو ، قتلهم "جليبيب" وحده . وهنا يذهب الرسول – صلى الله عليه وسلم . إليه ، ويقف عند جثمانه ، ويقول : "سبعة ثم قتلوه . هذا منى ، وأنا منه هذا منى وأنا منه" مرتين أو ثلاثاً .

و معنى ذلك أن "جلييب" هذا البسيط المتواضع ، الذى رفضت زوج الأنصارى أولاً أن تزوجه ابنتها وتقسم ثلاثاً لعمرو الله لا تزوجه ، هو فى الحقيقة، أعلى مكاناً وأرفع منزلة، ويكفيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينسبه إليه، وهذا النسب شرف لا يصل إليه أى أحد ، ولكن يصل إليه من رضى الله عنهم ورضوا عنه . وأنعم به من شرف .

ولنا أن نفسر أسباب هذا الشرف ، ونبحث عنه فى سياق القصة النبوية الشريفة ، فجلييب مع بساطة مكانته الاجتماعية ، وتواضعه بين أفراد الناس ؛ كان يحمل إيماناً عميقاً ، وإخلاصاً لا شائبة فيه للإسلام ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - لدرجة أنه يذهب إلى الأنصارى ، ويقول له : " زوجنى ابنتك " ولم يقل له : "زوج جلييباً ابنتك" فنسب الزواج إلى نفسه - صلى الله عليه وسلم - دليلاً على عظم مكانة "جلييب" لدى النبى - صلى الله عليه وسلم - علوّ شأنه فى الإسلام .

ثم إن "جلييباً" حين يدعو داعى الجهاد، لا يتخلف ولا يتباطأ، بل إنه يسارع ، ويذهب إلى الميدان فيقاتل بشجاعة المؤمن ، وصلابة من يطلب الشهادة ، وإرادة من يسعى لعزة الإسلام ، ولذا يسقط فى الميدان شهيداً ، بعد أن يقتل وحده سبعة من أفراد العدو ، ويتمدد جثمانه إلى جوارهم ! أليس جلييب شهيداً عظيماً حقاً ينتسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ؟ .

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكتف بالإشارة إلى انتسابه إليه ، ولكنه يضعه على ساعده ، ويحفر له قبره ، ويواريه الثرى ، دون أن يغسله ، فى إشارة إلى أن الشهداء لا يكفون ولا يغسلون ، وصدق الله العظيم إذ يقول :-

"وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ ﴿١٣١﴾

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَكَسَبَتْشُرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ

أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة آل عمران الآيات ١٦٩-١٧١)

أمّ أبي هريرة

أمّ أبي هريرة - ١

عن أبي كثير السحيمي قال : حدثنا أبو هريرة - رضى الله عنه - قال :-
ما خلق الله مؤمناً سمع بي و لا يرانى إلا أحببى، قلت: و ما علمك بذلك يا أبا هريرة؟
قال : إن أمى كانت مشركة ، و إنى كنت أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى علىّ ،
وإنى دعوتها ذات يوم ، فأسمعتنى فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أكره،
فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت :

يا رسول الله ، إن أمى امرأة مشركة ، و إنى أدعوها إلى الإسلام ، فتأبى
علىّ و إنى دعوتها ، فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدىّ أمى ، فقال :

" اللهم اهد أمّ أبي هريرة "

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم و أحمد و آخرون) .

.....

أبو هريرة صحابى جليل ، خدم الإسلام و المسلمين خدمة جلييلة ، و هو من
أكثر الصحابة رواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و كان حريصاً على
الحديث الشريف ، و كان حافظاً ، و له من العلم و الوعى ما جعل الثناء عليه يأتى
من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى قال : " و الذى نفس محمد بيده ،
لقد ظننت أنك أول من يسألنى عن ذلك من أمتى ، لما رأيت من حرصك على
العلم " . و قال عنه - صلى الله عليه وسلم : " أبو هريرة وعاء من العلم " . قال
زيد بن ثابت : يا رسول الله ، و نحن نسأل الله علماً لا ينسى ، فقال سبقكم بها
الغلام الدوسى!"

يقصد أبا هريرة رضى الله عنه .

وصفه الإمام البخارى فقال : روى عنه نحو ثمانمائة من أهل العلم ، و كان
أحفظ من روى الحديث فى عصره "

وقال عنه الإمام الحافظ الذهبى : أبو هريرة الإمام الفقيه المجتهد الحافظ ،
صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أبو هريرة الدوسى اليمانى ، سيدّ
الحفاظ الأتبات .

وفى هذه القصة التى يرئىها أبو كثير السحيمى يتحدث أبو هريرة عن نفسه وعن أمه ، ويرئى كيف أسلمت هذه الأم بعد أن كانت أشدّ عداوة للرسول - صلى الله عليه وسلم .

يبدأ حديث أبى هريرة عن نفسه فيقول: "ما خلق الله مؤمناً سمع بى ولا يرانى إلا أحببى" أى إن المؤمنين الذين عرفوا أباً هريرة أو سمعوا عنه أحبوا، أو كان محبوباً لديهم .

وهذا الأمر يقودنا إلى الإشارة إلى أن أباً هريرة لشدة ملاصقته للرسول - صلى الله عليه وسلم - واقترابه منه ، قد تعرّض لحملات شديدة من خصوم الإسلام وأعدائه وخاصة المستشرقون ، وأتباع الثقافة الاستعمارية فى بلاد المسلمين فى العصر الحديث فقد نالوا منه، وشكّوا فى رئاياته واتهموه اتهامات باطلة عديدة، ينفىها ثناء الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والعلماء من التابعين ومن جاء بعدهم عليه .

واستهداف أبى هريرة له هدف واضح وصريح، هو التشكيك فى ثوابت الإسلام وقواعده، وخاصة ما جاء فى السنّة المطهرة، ورئى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

أبو هريرة مع استهدافه والذيل منه محبوب من كل المؤمنين . أما غير المؤمنين فلم شأن آخر، ولن يستطيعوا أن يؤثروا فى مكاتته لدى المؤمنين . فقد بذل وأعطى وجاهد .. ونال الحبّ من أهل هذا الدين الحنيف .

وهو فى هذه القصة حين يتحدث عن حبّ المؤمنين له ، فإنه يمهّد بذلك لقصة مهمّة هى إسلام أمّه... لأن هذا الإسلام كان سبباً فى هذا الحبّ الذى جاء - كما سنعرف من القصة - استجابة لدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - له ولأمّه .

يعترف أبو هريرة أن أمه كانت مشركة ، وأنه كان يدعوها إلى الإسلام فتأبى عليه وتمتنع ، ولا تكتفى بذلك ، بل إنها تتماذى فى كراهيتها للإسلام ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فتقول ما لا يليق بهما ..

يقول أبو هريرة عنها : إنه دعاها ذات يوم للإسلام ، فأسمته فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يكره ... وذهب إليه وطلب منه أن يدعو الله ليهدى أمه . فدعا لها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال :

" اللهم اهد أمّ أبى هريرة "

ونلاحظ هنا أن أبا هريرة ، يدعو أمه المشركة إلى الإسلام ، ويحتمل منها سماع ما يكره فى النبى - صلى الله عليه وسلم - ومع ذلك يطلب لها الهداية ودخول الإسلام .

إن عدم إسلام أمّ أبى هريرة ، لم يمنعه من البر بها ، والتواصل معها ، واحتمالها وهو منهج إسلامى ، حثّ عليه الإسلام منذ بدايات الدعوة .

قال تعالى :-

"وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" (سورة الإسراء الآية ٢٣)

وفى موضع آخر نجد الآيات القرآنية تحث على الإحسان إلى الوالدين وطاعتهما إلا فى الشراك :-

"وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۗ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۗ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (سورة لقمان الآية ١٥)

أمّ أبي هريرة - ٢

طلب أبو هريرة - رضى الله عنه - من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو الله ليهدى أمّة المشركة ، فقال :

" اللهم اهد أمّ أبي هريرة " .

يقول أبو هريرة : فخرجت أعدو أبشرها بدعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما أتيت الباب إذا هو مجافٌ ، وسمعت خضخضة الماء ، وسمعت خشف رجلىّ ، فقالت : يا أبا هريرة ، كما أنت ، وفتحت الباب ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، فقالت إنى أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً عبده ورسوله . فرجعت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبكى من الفرح كما بكيت من الحزن ، فقالت : يا رسول الله ، أليس قد استجاب الله دعوتك ، فهدى أمّ أبى هريرة ، فادع الله أن يحببني وأمى إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إليّ ، وإليها ، فقال :

" اللهم حبّب عبدك و أمّة ، إلى عبادك المؤمنين و حبّبهم إليه " .

*** *** *** ***

من حسن الخلق البرّ بالوالدين ، وقد كان أبو هريرة - رضى الله عنه - باراً بأمه المشركة ولذا طلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو لأمه بالهداية ودخول الإسلام ، وقد دعا لها الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستجاب الله سبحانه لدعائه ، فأسلمت وحسن إسلامها ، وكانت مع ابنها أبى هريرة من أحبّ عباد الله إلى المؤمنين .

وقد انشرح صدرُ أبى هريرة حين سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو لأمه بالهداية ، فخرج يعدو ، أى يجرى ليبشرها بهذه الدعوة ، وحين وصل إلى باب البيت فإذا به يراه مغلقاً ، أو حسب رأيتّه " فإذا هو مجافٌ " ، ولكنه سمع صوت الماء فى الداخل أو خضخضة الماء ، حيث كانت أمه تغتسل و تتطهر إيداناً بدخولها الإسلام ، كما يجب على من يدخل الإسلام أن يقوم بالاعتسال .. وحين سمعت

صوت قدميه بالخارج أو "خُشْفَ رجليه" ، طلبت منه أن يبقى فى مكانه حتى تلبس ثيابها "ولبست درعها وعجلت عن خمارها" ...وهنا سنجد بعض روايات الحديث أو القصة تختلف قليلاً فى صياغة هذه اللحظة ، أى قدوم أبى هريرة على أمه ، ولكنها تتفق على أن أباً هريرة جاء ليبشّر أمه بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوجدها تغتسل ، ثم تعلن إسلامها بنطق الشهادتين .

ولا شك أنّ إسلام أمّ أبى هريرة أفرحه وأسعده ، حتى بكى من الفرح ، كما كان يبكى من الحزن ، وكان عليه أن يرجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليخبره أن الله استجاب لدعائه ، وأنّه هدى أمه ، التى أعلنت الإسلام ، وتركت الشرك ، وكان فرح أبى هريرة دافعا له إلى طلب دعوة أخرى لها دلالة أخرى تستمر مع الزمان والمكان إلى ما شاء الله ... وهذا الطلب ، هو أن يدعو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يحبب الله أباً هريرة وأمّه إلى عبادة المؤمنين ، ويحبّهم إليه وإليها .

ودعوة الحبّ التى دعاها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأبى هريرة قد استجيبت وتحققت ، وصار المسلمون فى زمنه ، وبعده ، يحبّونه ، ويحبون أمه ويردّون اسمه فى شتى المناسبات التى تقتضى ذكر ما رآه من الأحاديث ، وما جرى منه فى علاقته برسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وسوف نلاحظ أن استجابة الدعاء لأبى هريرة وأمّه كانت تكريماً إلهياً ، فضلاً عن كونها تكريماً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو ما كان يحرص عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، حيث يطلبون منه - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو الله لهم ، وكانت الإستجابة الإلهية تصديقاً لقوله تعالى :-

" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا

لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ " (سورة البقرة الآية ١٨٦)

وقوله تعالى :-

"وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (سورة غافر الآية ٦٠)

والدعاء هنا مقرؤن بعبادة الله، وتعبير عن طاعته، والاستسلام لإرادته.. ومن

كان الله معه ، فلن يضل ولا يخيب!

وقد استفاد أبو هريرة رضى الله عنه ، من صحبته للرسول – صلى الله عليه

وسلم – فكان يطلب منه الدعاء ، وكان المولى سبحانه يستجيب له . لقد صحب

أبو هريرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أربع سنوات مباركة بعد غزوة خيبر

وكانت سنه إذ ذاك قد جاوزت الثلاثين ، فكان ملازماً له فى حركته وصلاته

وحجه وغزاه ومجالسه ، بل كان يقيم فى المسجد ، والرسول – صلى الله عليه

وسلم – أمامه ، يتلقى عنه العلم ويشاهد تطبيق الشريعة ، وذهب إلى البحرين

ليؤم أهلها للصلاة ويؤن لهم ، ويعلمهم أمور دينهم كما شاهدها فى موطن النبوة .

وكان حريصاً على سماع الحديث وسؤل الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذى

كان يجيبه على كل ما يسأل عنه .

لقد ظل أبو هريرة رمزاً من رموز العلم والمعرفة التى عرفها صدر الإسلام ،

ففهم ووعى وروى ، ولذا يركز خصوم الإسلام وأتباعهم من المنافقين والأفاقيين ،

على تشويه صورته ، والتشكيك فى روايته لهدم ثوابت الدين .. ولكنهم ينهزمون

بفضل الله ، ثم بفضل العلماء الثقافات الذين يجلون صورته ، ويضيئون تاريخه

الصحيح .

النَّبِيُّ وَذِي

المنبوذ !

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رجلاً كان يكتب للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كان قرأ البقرة وآل عمران ، وكان الرجل إذا قرأ البقرة ، وآل عمران جدّ فينا فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ، فمات .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : " إن الأرض لا تقبله ! "

فحفرها له ، فوارءه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفرها له فوارءه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، ثم عادوا فحفرها له ، فوارءه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ، فتركوه منبونا .

قال أنس : فأخبرني أبو طلحة أنه أتى الأرض التي مات فيها ، فوجده منبوناً قال أبو طلحة : ما شأن هذا ؟

فقالوا : قد دفعناه مراراً ، فلم تقبله الأرض . (حديث صحيح، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما).

.....

تكشف هذه القصة النبوية عن جانب من معجزات الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مجال الإخبار بالغيب وحيماً من عند الله جل وعلاً .

فهو يكشف مصير رجل كان مسلماً ، وارتد ، أى رجع عن الإسلام ، فإذا الأرض لا تقبله ولا ترضى به داخل بطنها لتوارى جثته ، مما عرضها لتكون فريسة للسباع والطيور الجارحة والحيوانات الضارية ... أى إن جثته فُضحت على رءس الأشهاد ، نتيجة لكفره بنعمة الله وإيثار الدنيا على الآخرة .

وتبدأ القصة التي يرويها أنس بن مالك - رضى الله عنه - بأن الرجل كان من كتّاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سواء كان يكتب له الوحي أو الرسائل أو أشياء أخرى ، وكان يقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران ، ويفقه ما فيهما من معان وتشريع وتوجيه ومناقشة للمشركين وعباد الأصنام ، وإثباتٍ لصدق رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم ... والدليل على ذلك أنه كان إذا قرأ البقرة ، أو آل عمران أتّرفى الصحابة الذين يستمعون تأثيراً عظيماً ، أو حسب قول أنس بن مالك - رضى الله عنه - " جدّ فينا " ، أى أتّرفينا بقوة ، وأخذ بتلابيب القلوب ..

فالرجل إذاً كان قريباً ، من النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان قريباً من الصحابة ، ولكنه آثر الدنيا ، فارتد عن الإسلام ، ولحق بالمشركين ، أى ترك المدينة والمسلمين وأعواه الشيطان . ونهب إلى المشركين ليعيش بينهم ، كما يعيشون .. وظل مشركاً حتى مات .

و عندما علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بموته بعد ارتداده ، قال :

" إن الأرض لا تقبله " !

ومعنى أن الأرض لا تقبله، أى ترفضه، لأنه كان على الحق، وفارقه، وعرف الإسلام معرفة جيدة ، ولكنه أثار الرجوع عنه ، لمطمع دنيوى ، أو شهوة معينة، أو غاية رخيصة، وهنا، فإن غضب الله عليه والملائكة والناس أجمعين لا يكفى تعبيراً عن مصيره البائس ، بل إن هذا الغضب يمتد إلى الأرض الصماء أو الأرض التى تتكون من تراب لا روح فيه ولا حياة ، حيث تعبّر عن غضبها بطريقتها الخاصة ، فترفض بقاء جثمانه داخلها ، وتلفظه ، أى تخرجه من باطنها ، ليكون عورة مكشوفة أمام الناس .. يأكل منها الحيوان والطير..وقد صدق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فى نبوءته حين قال : " إن الأرض لا تقبله " !

ويحكى أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن الناس أو من معه قد دفنوه ، أى حفروا له لحده ليوارى الثرى ، ولكنهم فوجئوا به وقد نبذته الأرض على وجهها ، أى أخرجته من باطنها ! فعادوا ليحفروا مرة أخرى ويدفنوه ، ولكنهم فوجئوا به منبونا على وجه الأرض أو اللحد .. وكرروا الأمر مرة ثالثة ، فإذا بالأرض تفعل به ما فعلته من قبل .. وعندئذ أيس الناس منه، وتركوه مكشوفاً فى العراء .. وياله من عقاب إلهى لمن عرف الحق، ورجع عنه، وصدق بالإيمان عن يقين، ثم كذب به !

لقد تأكد أبو طلحة من صحة الحادثة ، و ذهب إلى الأرض أو المكان الذى مات فيه ، وسأل عنه ، و أكدوا له صحة النبوءة التى تنبأ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له دفناه مراراً فلم تقبله الأرض .

وقد يسأل سائل: أ يحدث ذلك مع كل مرتد ؟ والإجابة أن هذا مثال حى يدل على عظم جريمة الردّة ومدى بشاعة من يرتكبها ، وخاصة من يتلاعبون بالأديان، وأن عقابهم الإلهى سيكون فى الآخرة أشدّ وأنكى . إن الإسلام لا يُكره، أحداً على دخوله أو الانتساب إليه .

قال تعالى :-

"..... فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا

... (سورة الكهف من الآية ٢٩)

ومن يدخل الإسلام فإنه يفعل ذلك عن درّس واقتناع وإيمان ويقين، يجعله يتحمل فى سبيل ذلك الشدائد والمتاعب كما جرى للمسلمين الأوائل فى مكة . ومن ثمّ ، فإن الارتداد عن الإسلام لا يعنى الخروج منه وحده بل الخروج من بقية الأديان التى يحض الإسلام على الإيمان بها وبرسلها وأنبيائها وكتبها مع الملائكة .. نسأل الله أن يهدينا إلى الحق والصواب .

سورة البقرة

سورة البقرة - ١

عن أسيد بن حضير - رضى الله عنه - قال :-

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت، ثم قرأ، فجالت الفرس، فسكت فسكنت، فانصرف، وكان ابنه قريباً منه، فأشفق أن تصيبه، فلما اجترّ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح، حدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "بينما أنا أقرأ البارحة، والفرس مربوطة إذ جالت؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "اقرأ يا ابن الحضير، اقرأ يا ابن الحضير" ثلاث مرات .. (حديث صحيح أخرجه البخاري و مسلم وغيرهما)

.....

أسيد بن حضير راوى الحديث الشريف أو القصة النبوية، من الصحابة المخلصين الذين أبلوا بلاء حسناً من أجل الدعوة والداعية - صلى الله عليه وسلم - وقد روى جانباً من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحظى بتكريمه وتقديره، فضلاً عن الكرم الإلهي الذي اختصه الله به في أكثر من مناسبة.

والقصة التي يرويها أسيد تدور في إطار قراءة القرآن الكريم وفضله على قارئه، وخاصة من يتلوه بخشوع وإخلاص ولا ينشغل بغيره، من أعراض الدنيا ومتاعها الزئلل.. وقد كان في هذه القصة يقرأ سورة البقرة في جوف الليل والناس نيام يستمتعون بلذة النوم وراحته ..

وسورة البقرة من أطول سور القرآن الكريم، وورد في فضلها بعض الأحاديث الشريفة التي تكشف عن أهميتها وفوائدها. فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة".

وفي الحديث المتفق عليه الذي رواه أبو مسعود البدرى - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه" وقيل كفتاه المكره تلك الليلة. وقيل: كفتاه من قيام الليل.

وفي صحيح مسلم، عن أبي بن كعب - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" - يقصد آية الكرسي في سورة البقرة - ف ضرب فى صدرى و قال: " ليهنك العلم أبا المنذر " أى يسر الله لك العلم يا أبا المنذر.

وتبدأ القصة النبوية من المشكلة أو العقدة ، كما يسميها نقاد الأدب ، فنحن أمام الصحابي الجليل، وهو يقرأ سورة البقرة فى جوف الليل. وحين يقرأ فإن فرسه تثب أو تجول أى تقفز. أما حين يسكت ويكف عن القراءة ، فإنها تسكن وتتوقف عن القفز أو الوثب أو الجولان .

كرر أسيد بن حضير هذا الأمر، واضطر أخيراً ، أن يتوقف عن القراءة، ليصحب ولده أو يجزّ من المكان الذى كانت فيه الفرس ، حتى لا تطأه وتصيبه بأذى ، ورفع رأسه إلى السماء، حتى ما يراها، وفى الصباح حدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما جرى له. **قال أسيد:** بينما أنا أقرأ البارحة، والفرس مربوطة إذ جالت- أى قفزت ووثبت. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "**اقرأ يا ابن الحضير ، اقرأ يا ابن الحضير**" وكرر هذا الأمر ثلاث مرات .

ويفهم من سياق الحديث أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقصد أن يقرأ أسيد سورة البقرة ، وهو يحكى له ما جرى البارحة من أمر القراءة والفرس ، ولكنه - صلى الله عليه وسلم - يستحضر صورة الحال التى كان عليها أسيد، وهو يقرأ ، فكأنه يقول له : استمر فى القراءة يا أسيد .. لتنعم بفضل الله عليك نتيجة القراءة، وبركتها المتمثلة فى نزول الملائكة عند القراءة، ونزول الرحمة من عند الله، بسبب ما تحمله السورة وتقدمه من فضل وخير.

إن سورة البقرة بوصفها أطول سور القرآن الكريم ، تبدأ بالحديث عن القرآن الذى لا شك فيه ولا ريب ، وهو كتاب الهداية للمتقين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهؤلاء هم المفلحون فى الدنيا والآخرة ، وتنتهى بتقرير مبدأ عام يؤكد يسر الإسلام وتيسير، على أتباعه .

"...لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا....." (سورة البقرة من الآية ٢٨٦)

مع دعاء بعدم المؤخذه عند النسيان أو الخطأ ، وعدم تحميل المسلم ما لا طاقة له به ، وطلب الغفران والرحمة والنصرة على الأعداء من واهب النصر، وهو المولى عز وجل وعلا.....وما بين البداية والنهاية قصة الخلق وقصص لبعض الأنبياء ، مع بيان تشريعات وإشارات لقوم سابقين ، وهو ما يعنى أن طول السورة ومحتوياتها دليل على أهميتها وقيمتها وفضلها ، مما يجعل قراءتها سبباً لنزول الملائكة مع رحمة الله .

سورة البقرة - ٢

عندما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأسيد بن حضير :
"إقرأ يا ابن الحضير...اقرأ يا ابن الحضير" ثلاث مرات . قال أسيد :
فقرأت فجالت ، فسكت فسكنت ،

فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريباً ، فانصرفت إليه ، فرفعت
رأسى إلى السماء ، فإذا هو مثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى لا
أراها !

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " وتدرى ماذا ؟ "

قال : لا يا رسول الله .

قال : " تلك الملائكة . أتت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس
إليها ، لا تتواري منهم " .

.....

كان أسيد بن حضير يحكى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مل جرى فى أثناء
قراءته لسورة البقرة أطول سور القرآن الكريم ، حيث كانت فرسه تقفز وتثب وتجول إذا
قرأ آياتها ، وتسكن وتهدأ وتقف إذا سكت أسيد عن القراءة ، وكان الرسول - صلى الله
عليه وسلم - كأنه يستحضر الموقف الذى كان عليه أسيد ، فيقول له : اقرأ يا ابن الحضير ...
اقرأ يا ابن الحضير ثلاث مرات ، وذلك لفرحه - صلى الله عليه وسلم - بنزل الملائكة مع
رحمة الله على أسيد وهو يقرأ القرآن .. وهنا يبدو " أسيد " وقد أحس بتقصيره عن
الاستمرار فى القراءة ، فراح يعتذر للرسول - صلى الله عليه وسلم - بخوفه على ابنه :

" فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريباً " ، والضمير هنا يعود على
الفرس التى تقفز وتثب وتجول ، فخاف أن تدوس ولده يحيى الذى كان بالقرب منها .
وهو ما دفعه إلى التوقف عن القراءة والانصراف إلى الولد لإبعاده عن الخطر الذى يتوقعه
من فرسه .
وفى أثناء انصرافه بولده يحيى . رفع أسيد بصره إلى السماء فكأنه لا يراها ولكنه
رأى شيئاً مدهشاً لم يألفه من قبل ، فقد كانت السماء كالظلة وفيها ما يشبه المصابيح
التي تصعد أو تعرج إلى السماء بحيث لا يتمكن من رؤيتها جيداً .
إنه مشهد مهيب ، جعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل " أسيد " عن هذا الذى
رآه : " و تدرى ما ذاك ؟ " .

وتكون إجابة " أسيد " تلقائية وطبيعية : لا يا رسول الله .

وهنا يشرح له الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما رأى في عبارة موجزة :
 - " تلك الملائكة، أنت لصوتك، و لو قرأت لأصبحتَ ينظر الناس إليها لا تتولى منهم " .
 يقرر الرسول -صلى الله عليه وسلم- في عبارته أن ما رآه "أسيد" هو الملائكة؛ وقد
 نزلت الملائكة استجابة لسماع صوته .. ويبدو أن قراءة "أسيد" كانت قراءة متقنة خاشعة
 في صوت جميل يدل على الطاعة والالتزام والتأمل في معنى كلام الله . وهو ما جعل
 الملائكة تنزل كأنها المصاييح ... فأفزع فرسه التي جالت ، أى قفزت ووثبت من رؤيتها ،
 ونلاحظ هنا أن الملائكة تنزل عند القراءة ، وتصعد عند التوقف عنها، مما جعل الفرس تقفز
 عند نزولها، المواكب للقراءة، وتسكن عندما يسكت عن القراءة مواكبة لصعودها .
 ويشير الرسول -صلى الله عليه وسلم- إن "أسيداً" لو استمر في القراءة بصوته
 الخاشع المتقن، لظلت الملائكة نازلة لا تصعد، حتى يراها الناس، دون أن تختفى أو تبتعد...
 والغاية كما نراها من القصة أن القرآن الكريم له فضل عظيم على من يتلوه؛
 أو يتأمله ، لدرجة نزل الملائكة لسماعه، و معها رحمة الله لمن يقرأ أو يتلو. وكانت قراءة
 القرآن توجبها للرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله تعالى :-

".....وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً" (سورة المزمل من الآية ٤)

وتوجيهاً للمؤمنين بقراءة ما تيسر منه :-

"....فَأَقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ ۖ وَءَاخِرُونَ
 يَضُرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۖ وَءَاخِرُونَ يُقْلَبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَأَقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنْهُ....." (سورة المزمل من الآية ٢٠)

وقد علمنا الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في حديث شريف أن قارئ
 القرآن وهو ما هزبه مع السفرة الكرام البرية ، والذي يقرأ القرآن الكريم ويتتبع فيه وهو
 عليه شاق له أجران . والتعته هي التردد والصعوبة في النطق .. فكأن من يتتبع له مكافأة
 مضاعفة بسبب إخلاصه وإصراره على القراءة .

إن "أسيد بن حضير" في قصته يكشف عن فضل قراءة سورة البقرة خاصة ، وفضل
 قراءة القرآن عامة ، فالملائكة حين تنزل و معها رحمة الله لسماع قارئ القرآن المخلص
 المطيع المتقن تؤكد على بركة القرآن في كل زمان ومكان . نفعنا الله بالقرآن وأهله .

الراعى و الذئب !

۱.۳

الراعى و الذئب !

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال :

عدا الذئب على شاةٍ فأخذها ، فطلبه الراعى ، فانتزعها منه ، فأقعى الذئب ؟ على ذنبه ، وقال : ألا تتقى الله ، تنزع منى رزقاً ساقه الله إلى ؟ !

فقال الراعى : يا عجبى . ذئبٌ وقع على ذنبه يكلمنى كلام الإنس ؟ !!

فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد - صلى الله عليه وسلم -

بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق !!

قال : فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزأها إلى زوية من زواياها ، ثم

أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، وأسلم .

فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنودى : الصلاة جامعة ، ثم خرج رسول

الله ، **فقال للراعى :** " أخبرهم " فأخبرهم : فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم :

صدق والذى نفسى بيده ، لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل

عذبة سوطه ، وشريك نعله ، ويخبره فخذُه ، بم أحدث أهله بعده "

(حديث صحيح ، أخرجه أحمد و الترمذى و آخرون) .

.....

.....

هذه قصة متكاملة الأركان بالمعنى الفنى ، ففيها الحدث والشخصيات والحوار

والحبكة والبداية والذروة والنهاية ، وهى قبل ذلك وبعده ، تحقق الغاية الدينية الأساسية

التي تتغيها القصة النبوية ، مثلها مثل القصة القرآنية ، التي تجعل الهدف الدينى هو

الأصل فى بناء القصة وتسلسل أحداثها ، سواء اتفق هذا البناء مع المعايير الفنية التي

يعرفها الناس فى قصصهم الذى يكتبونه بأيديهم أو لا .

إن القصة النبوية فى الحديث الشريف ، تقدم وقائع حقيقية ، وأبطالاً حقيقيين ،

وتقوم على التشويق الذى يجعل منها قصة حيّة ونامية ، تصل إلى غايتها فى سلاسة ويسر .

وتبدأ القصة بحكاية تثير العجب حقاً ، حيث يعدو ذئب على شاة ويخطفها

ويذهب بعيداً ، ولكن الراعى صاحب الشاة ، يتعقبه ويطلبه ، ويجرى وراءه ، حيث

يلحق به ، وينتزع منه الشاة المسروقة أو المخطوفة .. ويفاجأ الراعى بأن الذئب يقعى

على ذنبه ، أى على ذيله أو مؤخرته مع رفع قائمته الأماميتين ، ثم يتكلم كلام البشر

أو الإنس ، ويخاطب الراعى بمنطقية مذهلة ، ويقول له :

- ألا تتقى الله؟ تنزع منى رزقاً ساقه الله إلي؟

ومنطق الذئب هنا صحيح ، فهو منطق الغابة ، التى يعيش فيها الأقوى سيداً ، أما الضعيف فلا مكان له ، إلا أن يكون فريسة لغيره ، يفترسها من يملك القوة . وهو منطق يطبقه بعض البشر الذين خلا قلوبهم من الإيمان والخوف من الله ، فيعتدون على الضعفاء ويسلبونهم حقوقهم وممتلكاتهم ، بل أرواحهم فى أحيان كثيرة .

الراعى يأخذه العجب من منطق الذئب الذى يتكلم بكلام الإنس أو البشر ، فيصيبه الدهول والدهش ... ولكن الذئب يقول للراعى : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد - صلى الله عليه وسلم - بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق !!

ووجه العجب هنا ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أمى ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يجلس إلى الرواة أو المؤرخين كى يعرف أخبار السابقين وما حدث لهم ولكن القرآن الكريم الذى يوحى إليه ، يفصل ما جرى للبشرية منذ خلق آدم عليه السلام ، ويوضح ما حدث فى السموات والأرض ، ويسرد قصص الأنبياء والرسل وغيرهم . وهذا بالمنطق العقلى ، أكثر وأشدُّ عجباً ، من كلام الذئب مثل البشر .

ويذهب الراعى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ويخبره بما جرى ، ويعلم إسلامه ويأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالنداء - للصلاة الجامعة ، ويأمر الراعى أن يرى للناس ما رآه من أمر الذئب الذى تكلم بكلام البشر ، فيخبرهم بما جرى وحدث ، وهنا يتوجه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الصحابة معلقاً على رؤية الراعى ، ومصدقاً لها قائلاً : **" صدق و الذى نفسى بيده . لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، و يكلم الرجل عذبة سوطه ، و شراك نعله ، و يخبره فخذة بم أحدث أهل بعهه "** .

إذاً كلام الذئب وبقية السباع ، هو علامة من علامات الساعة أو قيام الساعة أو يوم القيامة ، ويضاف إليها كلام آخر ، يتمثل فى أن الرجل يتكلم مع عذبة سوطه ، أى طرف سوطه الذى يسوق به الدابة ونحوها ، ويتكلم مع شراك نعله ، أى السير الجلد الذى يربط النعل بحيث تدخل فيه القدم ، ويتكلم الفخذ أو الجزء من جسد الإنسان بما فعل أهل الرجل فى غيابه عنهم أو ببعده عنهم .

وهذا كله يؤكد صحة النبوة ، وصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحمية البعث وقيام الساعة ، وما يجرى فيها من حساب يترتب عليه ثواب وعقاب .. ثم التذليل الذى لا يقبل الشك أو الجدل ، على قدرة الله سبحانه وهيمنته على الكون وما فيه ومن فيه . **إن القصة المشوقة تقودنا إلى غايتها بإثبات أن الله على كل شئ قدير .**

عقد عائشة

۱.۷

عقد عائشة - ١

عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء ، أو بذات الجيش ، انقطع عقدى لى فأقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على التماسه ، وأقام الناس معه ، وأيسوا على ماء ، وليس معهم ماء . فأتى الناس أبا بكر ، فقالوا ألا ترى ما صنعت عائشة أقامت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالناس ، وأيسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

فجاء أبو بكر ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واضع رأسه على فخذي قد نام **فقال** : حبست رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والناس ، وأيسوا على ماء ، وليس معهم ماء؟! قالت: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده فى خاصرتي.."
(حديث صحيح ، أخرجه مالك و البخارى و آخرون)

.....

تنبىء هذه القصة النبوية عن ملمح من ملامح العلاقة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته ، كما تكشف عن واقع العلاقة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ، من خلال مشكلاتهم وقضاياهم وحياتهم اليومية....وبالإضافة إلى ذلك فهناك منهج للعلاقة بين الأب وابنته المتزوجة يقوم على أسس التوجيه أو التربية التى تهدف إلى إقامة البيت المستقر الذى يراعى حقوق جميع الأطراف .

وتحدثنا القصة النبوية عن سفر النبى - صلى الله عليه وسلم - مع زوجته عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - ضمن مجموعة من الصحابة ، وتبدأ الأحداث بوصول الوفد المسافر إلى البيداء أو الصحراء ، ولكنها فى هذه القصة يُقصد بها مكان اسمه ذو الحليفة قريب من المدينة على الطريق إلى مكة ، وتشير عائشة - رضى الله عنها - إلى أنها غير متأكدة من المكان ، هل هو البيداء أو ذو الحليفة ، أو ذات الجيش ، وهو مكان وراء ذى الحليفة ، وهنا انقطع عقد عائشة ، وضاع منها . والعقد بالنسبة للمرأة هو أداة الزينة الغالية التى تترى بها لزوجها ، وتحرص عليها ، وتعدّها من أعلى ممتلكاتها ولعل هذا هو ما جعل بعض الأقوال المأثورة تشير إلى أن زينة النساء الذهب ، وزينة الرجال الأدب ، ولا يعنى ذلك بحال أن تكون المرأة عاطلة من الأدب ، ولكنّ الذهب بالنسبة لها هو أمر طبعى يتفق مع ميل النساء إلى الحلى والتزيّن ، ليكنّ فى أجمل صورة حسّية فى عيون أزواجهن ، بالإضافة إلى الصورة المعنوية والنفسيّة التى تقرّب بينهن وبين الأزواج .

لقد اهتم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمر العقد الذى ضاع من عائشة ، وراح يلتمسه أو يبحث عنه ليجده ويرتبه إليها ويهدئ خاطرهما ، ويعيده إليها حيث تسعدها عودته ، وتسرها ..

فى ذلك الوقت ، كان الناس الذين مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى سفرهم يعيشون أزمة أخرى أو مشكلة أخرى حيوية ترتبط بوجودهم ومصيرهم ، كما تؤثر أيضا فى عبادتهم .. وهى عدم وجود الماء . فهم فى مكان مقفر لا يوجد فيه ماء ، ولذا سُمى البيداء أى الصحراء ، لخلوه من الماء ، مع أن له اسما آخر ، وهو ذو الحليفة أو ذات الجيش .. وليس مع القوم ماءً يكفيهم لأغراضهم المختلفة ...

وهنا كان على الناس أن يستنجدوا بقائدهم وزعيمهم أو نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ليحل لهم المشكلة ، ويجد لهم مخرجاً ، ولكنهم لم يستطيعوا اللقاء به - صلى الله عليه وسلم . كان التصرف الطبيعى أن يذهب الناس إلى أبى بكر ، أقرب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، وبدا لهم أن عائشة - رضى الله عنها - قد استأثرت بالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - فمنعته عن الناس ، أو حرمت الناس من لقائه ، وهو ما يتبدى فى تساؤلهم الإنكارى : **" ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالناس وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ؟ "**

وكان على أبى بكر - رضى الله عنه - أن يتحرك لمساعدة الناس ، ويدخل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى مكان إقامته ، فيجده قد وضع رأسه ، على فخذ عائشة ونام .

وكان أبى بكر قد تأثر بكلام الناس ، وبما رأى من نومه - صلى الله عليه وسلم - على فخذها بينما الناس ، يعانون من عدم وجود الماء ، فراح يعاقب ابنته ، ويذكر لها معاناة الناس . عائشة رضى الله عنها ، تتحدث عن أبيها وتذكر اسمه " فعاتبنى أبو بكر " ، وكأنه صار أجنبيا منها ، لأنه لم يتعامل معها بمنطق الأب الحانى الرقيق ، ولكن بمنطق الأب الحازم الصارم ، الذى يوجه ابنته إلى السلوك الصواب فى مثل هذه المناسبات التى تقتضى أن تتخلى عن الوضع العادى الذى يختلف عن الوضع الاستثنائى وهو الوضع الذى يعيشه المسلمون فى سفرهم ، حيث لا يوجد ماء ، والماء فى الصحراء عصب الحياة وأساسها ، وهو وسيلة الطهارة الكبرى والظاهرة الصغرى - أى الغسل والوضوء .. ولذا كان غضب أبى بكر حاداً وغير عادى ...

عقد عائشة - ٢

عاتب أبو بكر - رضى الله عنه - ابنته عائشة زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقال ما شاء الله أن يقول تعبيراً عن غضبه الحاد لدرجة أنه راح يطعن خاصرتها بيده . تقول عائشة - رضى الله عنها : " فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فخذى ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أصبح على غير ماء . فأنزل الله سبحانه وتعالى آية التيمم فتيمموا .

فقال أسيد بن حضير : جزك الله خيراً ، فوالله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجاً ، وجعل للمسلمين فيه بركة . ما هى بأول برئكم يا آل أبى بكر .

فقالت عائشة : فبعثنا البعير الذى كنت عليه ، فوجدنا العقد تحته ! " .

.....

لا شك أن أبا بكر فى صدقه وإخلاصه، حتى وهو غاضب على ابنته، من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين، حتى اضطر إلى عتابها بالقول الحاد الذى يبدو وأنه استمر طويلاً أتبعه بطعنها فى خاصرتها بيده تعبيراً عن الغضب، كان يهدف إلى أن يحل المسلمون مشكلتهم المتمثلة فى عدم وجود ماء مع المسافرين يستخدمونه فى العادات والعبادات ...

وكانت عائشة نموذجاً للابنة المطيعة التى تستجيب لأبيها ولعتابه أو غضبه الذى عبّر عنه بالقول والفعل ، فتصبر عليه ، وفى الوقت ذاته تصبر على نوم الرسول - صلى الله عليه وسلم - على فخذها، فلا تتحرك كى لا توقظه أو تقطع عليه متعة الاستغراق فى النوم، مما يدل على مراعاتها لواقع الحال، ولآداب العامة والخاصة

التي تفرض على كل مسلم ألا يزعم غيره؛ بسلوك بقلق راحته أو يؤثر على خصوصيته .

وقد أذان القرآن الكريم وفد بنى تميم ، عندما جاءوا إلى المدينة المنورة ، لمقابلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فخرجوا على الآداب المطلوبة ، وراحوا ينادونه فى وقت القيلولة وهو نائم ، من وراء الحجرات ، وصاحوا عليه ليخرج إليهم ...ونزلت الآيات الكريمة فى سورة الحجرات تشير إلى ذلك وتستنكره :

" يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " (سورة الحجرات الآيات من ١-٥)

والآيات الكريمة مع بقية آيات السورة تطرح العديد من الآداب العامة والخاصة التى يجب أن يراعيها المسلم مع الآخرين ، بهدف بناء مجتمع خال من المتاعب والأضغان ويكون التفاضل فيه قائماً على أساس التقوى ..

ولعل حرص عائشة - رضى الله عنها - على تقبل ما فعله أبوها ، وفى الوقت نفسه تحمّلها غضبه و طعنه بيده لخاصرتها حرصاً على عدم إزعاج الرسول الكريم -

صلى الله عليه وسلم - يؤكد على تمسكها بأداب الإسلام وقيمه وسلوكياته ، مما يشكل قدوة لغيرها من المسلمات والمسلمين .

ثم نرى من تطور أحداث القصة أن حلّ الأزمة القائمة أو عدم وجود الماء ، جاء بتشريع يخفف عن المسلمين ، ويحلّ معضلة التطهر من أجل الصلاة أو العبادة ، فقد أصبح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يجد ماءً ، وهنا نزل الوحي ليشرع التيمم ، ونزبت الآية الكريمة توضح ذلك للناس ، حتى لا يقصروا عن أداء الصلاة فى أوقاتها .

يقول تعالى :-

"يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (سورة المائدة الآية ٦)

وتيمم الصعيد الطاهر، أى التراب الطاهر الذى يُمسح به الوجه واليدين ، تخفيفاً على المسلمين ، وتيسيراً لهم ورحمة بهم .

وهذه الرحمة وذلك التيسير وذاك التخفيف ، كانت فى قصتنا ، دافعاً لأسيد بن حضير ليعترف بدور أبى بكر وابنته عائشة ، فى خدمة الإسلام والمسلمين ، حيث يخاطب أبى بكر رضى الله عنه - جزاك الله خيراً ، فوالله ما نزل بك أمر قط ،

إلّا جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة. ما هي بأول يركتكم يا آل أبي بكر".

وإذا كانت النعمة الإلهية الكبرى بالتيشير على المسلمين بالتييم ، فهناك نعمة صُغرى أنعم بها على عائشة ، حين نهض البعير الذي كانت عليه ، فعثرأ على العقد الضائع تحته ، وبالطبع كانت فرحتها به كبيرة ، لأنه يمثل لها شيئاً كبيراً .
وفى كل الأحوال فإن الحديث الشريف يقدم لنا صورة للتعامل داخل الأسرة المسلمة تقوم على احترام الأبناء للآباء ، وحرص الزوجات على راحة الأزواج ، والاعتراف بنعمة الله وفضله على الأشخاص والمجتمعات...فضلاً عن مراعاة الآداب العامة والخاصة لمجتمع يتفاضل أفراده بالتقوى والعمل الصالح .

العيد الأسبوعي

العيد الأسبوعي - ١

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-
"أتانى جبريل ، وفى يده كالمراة البيضاء ، فيها كالنكتة السوداء ، فقلت : يا جبريل ما هذه ؟
قال : الجمعة .

قلت : وما الجمعة ؟ قال لكم فيها خير .

قلت : وما لنا ؟

قال : يكون عيداً لك و لقومك من بعدك ..

قلت : وما لنا فيها ؟

قال : لكم فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم ؛ يسأل الله فيها شيئاً من الدنيا والآخرة
هو له قسم إلا أعطاه إياه ، أو ليس بقسم إلا ادخر له عنده ما هو أفضل منه ، أو يتعوذ
به من شرّ هو عليه مكتوب إلا صرف عنه من البلاء ما هو أعظم منه .

قلت له : وما هذه النكتة فيها ؟

قال : هى الساعة ، هى تقوم يوم الجمعة ، وهو عندنا سيد الأيام ، و نحن ندعوه
يوم القيامة ... يوم المزيد....."

(حديث صحيح أخرجه ابن أبى شيبة و الطبرى و آخرون)

.....

تعتمد هذه القصة النبوية فى مجملها على الحوار والتصوير لبيان

فضل يوم الجمعة وبركته على المسلمين ، حيث يمثّل يوم عيدهم الأسبوعي ، الذى
يلتقون فيه اجتماعياً وروحياً ، ويتفرغون فيه لمزيد من العبادة والاتجاه إلى الله سبحانه
يطلبون منه المغفرة على ما فرطوا فيه ، والعون على ما ينتظرهم من عمل وعبادة .

ويحكى أنس بن مالك رضى الله عنه ، ما جرى بين جبريل عليه السلام ، والنبي
صلى الله عليه وسلم ، فى لقاء بينهما ، حيث جاء جبريل وفى يده ما يشبه المراة
البيضاء المصقولة ، ولكن هذه المراة لا يكتمل بياضها وصقلها لأن بها "نكتة" سوداء
أو بقعة سوداء تفسد بياضها و صفاءها .. وهنا لا بد أن يتساءل الرسول -صلى الله
عليه وسلم- عن السّر فى ذلك ، ويطلب الإجابة من جبريل ليقرّسه ما يرى .

ويسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - يا جبريل : ما هذه ؟ كأنه يستغرب أن تكون المرأة فيها بقعة غريبة . ولكن جبريل عليه السلام يخبر؛ أنها ليست شيئاً مزعجاً أو غير طيب.. بل هي أمر فيه خير وفيه فائدة له وللمسلمين، بل ولغير المسلمين. إن جبريل يقول له رداً على سؤاله ما هذه ؟ : الجمعة ..وتأمل ما فى الإجابة من إيجاز يعتمد على الحذف ليكون للإجابة وقعها المؤثر فى نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبدلاً من أن يقول له : هذه هى الجمعة .. يقول له : الجمعة . وهو ما يشوقه - صلى الله عليه وسلم - إلى المزيد من التساؤل ، فيقول لجبريل: وما الجمعة ؟ وتكون إجابة جبريل باعثة على تشويق أكثر، فيقول : لكم فيها خير.. ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يعلم طبيعة هذا الخير وماهيته ، فيزداد التشويق ، وترقب معنى الخير وطبيعته وهو ما يفسره جبريل عليه السلام ؛ بقوله :

" يكون لك عيداً ولقومك من بعدك ..."

والعيد فى كل الشرائع والعقائد ، هو يوم فرح و بهجة وسرور، واجتماع شمل الأسر والمجتمعات والشعوب على مناسبة واحدة ، يرن فيها خريراً جاً على السياق اليومي الرتيب ، الذى لا يتغير ولا يخرج عن مساره الجاد بالعمل والجهاد المعيشي .. فيأتي هذا العيد ليحدث التغيير والتحول ، ويتيح الفرصة للأهل والأقارب والجيران والأصدقاء أن يتلاقوا ، ويستمتعوا برؤية بعضهم بعضاً ، ويتناقلوا أخبارهم السارة، ويتعرفوا على أحوال الحاضرين والغائبين، وهو ما يمنح المجتمع تماسكاً وصلابة ، ويقيه شر العزلة والفردية والأنانية والوحدة ..

العيد بالنسبة للمسلمين : يوم الجمعة لا يقتصر خيره عليهم ، ولكنهم يمتد ليشمل غير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى ، حيث تقوى رؤى بطهم بأبناء هذا المجتمع، ويستفيدون بهذه المناسبة فى طرح مشكلاتهم وتفقد مصالحهم والاستفادة من التواصل الاجتماعى .

أضف إلى ذلك أن يوم الجمعة أو يوم العيد الأسبوعي ، يكون فرصة ذهبية للمسلم التقى وحتى الذى وصل قصر فى أمر من أمور الدين أو الحياة أو الآخرة ، كى يدعوربه ليعطيه ما يريد ..ففى هذا اليوم / الجمعة ، ساعة لا يوافقها أو لا يصادفها عبد مسلم ويسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . سواء كان المطلوب مقسوماً له أو غير مقسوم ..فالأول يتحقق ويُجاب إليه ، أما الآخر ، فإن الله يدّخر له ما هو أفضل منه وأحسن ، أو يكافئه بشيء أكبر من كل ذلك ، بصرف البلاء عنه حين يتعوذ أو يطلب الحصانة و الحماية من الشرّ الذى كتب عليه .

إنّ ، فهذا العيد الأسبوعي الذى صورته القصة على هيئة مرآة صقيلة ، تسر الناظرين، تحمل فى الوقت ذاته إشارة إلى بعيد أو قريب ، وهو يوم القيامة ، من خلال النكتة السوداء أو البقعة السوداء فى هذه المرآة ، والجمع بين العيد والقيامة لا بد أن تكون له دلالة فى وعى المسلم الذى يؤمن بربه وينتظر الآخرة، وهو ما سوف نسعى إلى محاولة فهمه .

العید الأسبوعی - ۲

فی حدیث أنس بن مالك رضی اللہ عنہ ، یخبرنا أن الرسول - صلی اللہ علیہ وسلم - عرف من جبریل علیہ السلام - أهمية يوم الجمعة بوصفه عيداً ، كما عرف أن الساعة تقوم يوم الجمعة ، الذي يدعو الملائكة يوم القيامة ، يوم المزيد ، وهو ما دفع الرسول - صلی اللہ علیہ وسلم - إلى التساؤل :

" ممّ ذاك ؟ "

قال : لأن ربك تعالى اتخذ في الجنة وادياً من مسك أبيض . فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه تبارك وتعالى ، ثم صف الكرسي بمنابر من ذهب ، مكلله بالجواهر ، ثم يجيء النبيون حتى جلسوا عليها ، وينزل أهل الغرف حتى جلسوا على ذلك الكتيب ، ثم يتجلى لهم ربك وتعالى ؛ ثم يقول :

" سلوني أعطكم "

قال : فيسألونه الرضا ، فيقول : رضائي أحكم داري ، وأني لكم كراسي ، فسلوني أعطكم .

قال : فيسألونه . فيشهد أنه قد رضى عنهم .

قال : فيفتح لهم ما لم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولا يخطر على قلب بشر....."

.....

لا ريب أن النكته السوداء التي رآها النبي - صلی اللہ علیہ وسلم - في المرآة التي كانت بيد جبريل عليه السلام ، كانت مثار تساؤله واهتمامه ، فلها دلالة ولها معنى وتحتاج إلى تفسير ، بعد أن فسّر معنى المرآة بأنها الجمعة التي فيها خير للمسلمين ولغير المسلمين من أبناء المجتمع الإسلامي ، أو المقيمين فيه ... ثم إنها تمثل لحظة الإجابة أو الاستجابة لدعاء يدعو المسلم في هذا اليوم ، فيعطى ما قُدّر له ، ويخفف عنه مما هو مكتوب عليه من شيء لا يحبه ويستعيد بالله منه .

إن جبريل عليه السلام ، يحدّد النكته التى فى المرآة البيضاء الصقيلة ، بأنها الساعةأى يوم القيامة ، حيث يعرف هذا اليوم عند الملائكة بأنه "سيد الأيام" ويدعونه يوم القيامة أو يوم المزيد .

وفى تفسير المزيد نجد عجباً...وهو ليس عجباً ؛ لأن فضل ربك لا يُحد ولا يُعد...ويوضّح جبريل عليه السلام " يوم المزيد" بأن الله تعالى يتخذ فى الجنة وادياً من مسك أبيض ، فإذا جاء يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه تبارك وتعالى والكرسى محفوف بمنابر من ذهب مزينة بالجواهر أو مكلّلة بها كأنها تيجان على حوافها و حواشيها...وبعدئذ يحضر النبيون والمرسلون ليجلسوا على هذه المنابر أو الكراسى العالية ، ثم ينزل أهل الغرف ويجلسوا فى هذا المكان ، حيث يتجلى لهم ربك تبارك وتعالى...وهذا التجلّى يمثل أعظم النعم التى ينعم بها أهل الجنة ممن اصطفاهم الله سبحانه لرؤيته و التنعّم بمشاهدته...فهؤلاء هم أولياء الله الذين وصفهم بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

"أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (سورة يونس الآيات من ٦٢-٦٤)

هل يكون التجلى داخلاً فى مجال البشرى الآخريّة؟ ربّما...ويكفى أنه يمنح عن أوليائه الخوف والحنن . ويبشرهم بالجنة فى الدنيا والآخرة . ألم يقل سبحانه: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَحْسَنَٰهُنَّ وَأَزْيَادَهُنَّ ۗ وَلَا يَرَهُنَّ وَأَجْرُهُنَّ يَرَهُنَّ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (سورة يونس الآيات من ٢٥-٢٦)

دار السلام هى الجنة ، والصراط المستقيم هو العمل الحسن ، والحسنى هى الجنة أيضا ، والزيادة هى الرضا الذى أشارت إليه القصة التى بين أيدينا ، وأشارت إليه سورة التوبة من قبل :

"....وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ....."

(سورة التوبة من الآية ٧٢)

والرضوان هو الرضا وهو ما فسره بعض العلماء بالرؤية للذات الإلهية .
وأياً كان الأمر فإن التجلى الإلهي يوم الجمعة، يوم العيد الأسبوعي للمسلمين،
ويوم القيامة ويوم المزيد ؛ ينعم فيه أهل الجنة من الأنبياء والمرسلين والصالحين
(أهل الغرف) بسؤاله سبحانه لهم :

" سلونى أعطكم "

فيسألونه الرضا . وتأمل طبيعة المطلب الذى قد يبدو لدى البعض شيئاً هيناً
أو بسيطاً ، إنه – كما سبقت الإشارة الرضوان – ثم هو يحمل معنى السلام والأمن والنعيم.
إنه سبحانه وتعالى يخبرهم بأنه رضى عنهم ، فقد أحلهم داره ، وهى الجنة
وأعطاهم الكراسى جواره ، ويسألونه ، ويشهدهم أنه قد رضى عنهم .

إذاً هذا يوم المزيد الذى يشهد فيه أهل الجنة من الأنبياء والصالحين الرضا
الإلهي يفتح لهم مالم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولا يخطر على قلب بشر .

**ولا شك أن الذين عرفوا الله فى الدنيا ، واقتربوا منه باليقين والإيمان
والعمل الصالح والجهاد الخالص لإعزاز الدين وأهله ، يرون ذلك أمراً طبعياً ، لا
جدال فيه ، فإيمانهم بمن خلق هذا الملكوت غير المحدود ، وهذه الكائنات التى لا
حصر لها ، ويسير العالم بقضائه وقدره ، قادر على أن ينعم بالمزيد على أوليائه بما لا
عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .**

العيد الأسبوعي - ٣

يتجلى الله - جل وعلا - على أنبيائه و أهل الغرف، ويسألونه الرضا، فيحلبهم داره، ويمنحهم جواره، ويرضى عنهم، ويفتح لهم ما لم ترعين، ولم تسمع أذن، ولا يخطر على قلب بشر....ويواصل أنس بن مالك -رضى الله عنه- حديثه عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - **فيقول** : " **قال** : وذلك مقدار انصرفكم من يوم الجمعة ، ثم قال: يرتفع ، ويرتفع معه النبيون ، والصديقون ، والشهداء ، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم وهى درة بيضاء ليس فيها فصم ولا قصم ، أو درة حمراء ، أو زبرجدة خضراء ، فيها غرفها وأبوابها مطرزة ، وفيها أنهارها وثمارها متدللية .

قال : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة . **ليزدادوا إلى ربهم نظراً وليزدادوا منه كرامةً** ."

وفى رواية أخرى : ثم يقول الله : اكسوا عبادى فيكسون ، ويقول : أطعموا عبادى فيطعمون ، **ويقول** : اسقوا عبادى فيسقون ، ويقول : طيبوا عبادى فيطيبون ، ثم يقول: ماذا تريدون؟ **فيقولون** : ربنا رضوانك . قال : يقول: رضيت عنكم ، ثم يأمرهم فينطلقون، وتصعد الحور العين الغرف، وهى من زمردة خضراء ومن ياقوتة حمراء (صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم).

.....

قضية الرضا فى هذه القصة النبوية الشريفة تعيدنا إلى الاهتمام الملحوظ بيوم الجمعة فى التشريع الإسلامى ، فقد وردت سورة كاملة تحمل اسم سورة الجمعة ، وهى من السور القصار أو سور المفصل، وتركز على تنزيه الله وتسبيحه فى السموات والأرض وعمومية الرسالة الإسلامية للبشرية جمعاء ، مع إشارة إلى تفريط اليهود فى التوراة وعدم انتفاعهم بها وزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس ...

بيد أن أهم ما تركز عليه سورة الجمعة هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة من أجل البيع والشراء ، واستنكار ما فعله بعض الناس حين انصرفوا عن خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم من أجل التجارة فى أثناء الاستعداد لصلاة الجمعة .

لذا نزلت الآيات الكريمة قاطعةً وحاسمةً :-

"يَنَّايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَواً أَنفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۗ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ" (سورة الجمعة الآيات من ٩-١١)

والآيات الكريمة واضحة في مطالبة المسلمين بالمسارعة لأداء صلاة الجمعة . بمجرد أن يسمعوا الأذان ، بل إن المذاهب الفقهية تستند إلى أحاديث عديدة في ضرورة التبكير قبل الأذان والذهاب إلى المسجد ، وقراءة القرآن الكريم أو الاستماع إليه حتى ينهض خطيب الجمعة، فيلقى الخطبتين ويؤم المصلين في ركعتي الجمعة... وبالطبع ؛ فإن أصحاب الأعذار والضرورات والمرضى والنساء لهم أحكام خاصة فصلتها كتب الفقه، وقد أجمع الفقهاء على أن المسلم الذي تجب عليه صلاة الجمعة لا يجوز له التخلف عنها ، وشرحوا ملامح الصورة التي ينبغي أن يكون عليها من يذهب لأدائها من ملابس حسن، ونظافة داخلية وخارجية، وذكر لله تعالى، وبتعد عن سفاسف الأمور، مع الصمت والإصغاء لخطيب الجمعة، كما فصلوا القول في طبيعة الخطبة ومضمونها وأسلوبها ومدتها وطريقة التأثير في الناس، وهو ما يحتاج إلى مناسبة أخرى لتناوله وبيانه..

بيد أن الأمر كله في بيان فضل يوم الجمعة ، يبدو ساطعاً في هذه القصة التي بين أيدينا ، حيث تكشف لنا مدى الكرم الإلهي لعباده من أهل الجنة الذين اختصهم برضاه ورحمته في ذلك اليوم، الذي يسمى يوم المزيد... من العطاء والخير، ولاحظ أن لفظة "الخير" وردت في الآية الكريمة " ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"، حيث تدعو المسلمين إلى ترك التجارة ، وهو ما جعل المالكية مثلاً يحرمون البيع والشراء بمجرد بدء الخطبة الأولى ، فضلاً عن أن هناك من جعل العقود التي تعقد في هذا الوقت فاسدة وباطلة ، واستدلوا بالحديث الشريف الذي يشير إلى تمنى حرق بيوت من يتخلفون عن أداء صلاة الجمعة وهم قادرين على أدائها ...

على كل ، فإن الرضوان الإلهي الذي يتمثل في التجلى والعطاء لأهل محبته، ويعطينا دليلاً قاطعاً على أهمية يوم الجمعة في حياة المسلمين الذين اختصهم برحمته ورضوانه، فهم ليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزنادوا إلى ربهم نظراً، ويزنادوا منه كرامة .

إن العطايا الحسيّة من دُرر حمراء وبيضاء وخضراء والغرف والأنهار والثمار والكساء والطعام والشراب والطيب والخور العين، والأبواب المطرقة... وغير ذلك لا يعدل عند أهل محبته سبحانه رؤيته ورضوانه، إنه يوم المزيد الذي ينتظره بشوق ولهفة .

إن يوم الجمعة ، هو يوم العيد ، ويوم المزيد ، وهو اليوم الذي ينبغي أن يحتفى به المسلمون بصورة أكثر وربما وإخلاصاً وصدقاً ، ويجب أن يقوّمهم إلى فهم المعنى الحقيقي للإسلام بالطاعة والعبادة والعمل الصالح الذي يحقق العزة والكرامة ، ويهيئ للجنة والرؤية إن شاء الله تعالى .

الفارس والراعى

الفارس والراعى - ١

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ف جاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزروعة بالديباج ، فقال :

" ألا إن صاحبكم هذا ، قد وضع كل فارس ابن فارس .

قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ويرفع كل راى ابن راى .

قال : فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجامع جبته ، وقال :

" ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟! "

ثم قال :

" إن نبي الله نوحاً - صلى الله عليه وسلم - لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاص عليك الوصية ، أمرك باثنتين ، و أنهاك عن اثنتين ، أمرك بـ (لا إله إلا الله) ، فإن السموات السبع لو وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله إلا الله فى كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع و الأرضين السبع كن حلقة مبهمه قصمتهن لا إله إلا الله ، وسبحان الله وجمده ، فإنها صلاة كل شىء ، وبها يرزق الخلق ، و أنهاك عن الشرك و الكبر....."

(حديث صحيح أخرجه البخارى و آخرون)

.....

تقدم لنا هذه القصة النبوية فى الحديث الشريف أكثر من دلالة مهممة فى المنهج الإسلامى ، الذى يحكم علاقات المسلمين مع بعضهم ومع غيرهم ، ومع من سبقهم من الأمم و الأنبياء فهذا المنهج يقوم على المساواة بين الناس ، لا فضل لعربى على أعجمى ، و لا لغنى على فقير ولا لكبير على صغير إلا بالتقوى و العمل الصالح . و هذا المنهج يقوم على المسالمة بين المسلمين و غيرهم ، و تبادل المنافع و المصالح ، طالما كانوا مسلمين مؤدعين .

"يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (سورة الحجرات الآية ١٣)

وهذا المنهج يقوم باعتبار الإسلام رسالة واحدة أرسلها رب العباد لإصلاحهم وإسعادهم ، من لدن آدم عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه وسلم . فالدين وحدة واحدة تقوم على توحيد الله عز وجل والإيمان بهذه الوجدانية يقود إلى الطاعة والالتزام بأوامر ونواهيه .

وقد جاءت إشارات عديدة فى القرآن الكريم إلى وحدة الدين الذى هو الإسلام وقد جاء به الأنبياء والرسل مؤكداً على الوجدانية الإلهية ، وإن اختلف التشريع بالنسبة للعصور والأزمان ، وهو ما أوجب علينا نحن أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - أن نؤمن بالأنبياء جميعاً ، ولا نفرق بين أحد منهم .

"ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ " (سورة البقرة الآية ٢٨٥)

ونستطيع من خلال هذه الدلالات أن نفهم القصة النبوية فى هذا الحديث الشريف ، وبطلها رجل من أهل البادية ، بدت عليه سمات أهل العز والجاه، فهو يلبس جبة سيجان وهى نوع غال من الثياب لا يرتديه إلا أصحاب المكانة والثروة فى قومهم ، وهى بالإضافة إلى غلائها مزودة بالديباج ، وهولون من ألوان الحرير أو القماش الفخم . وكلامه - أى رجل البادية - يدل على أنه من علية القوم الذين اشتهروا بالشجاعة والفروسية والقدرة على اقتحام الأهوال دون خوف أو وجل ... وهذه صفات لها مكانتها فى نفوس أهل البادية الذين كانت تنطوى حياتهم الخشنة والشاقة على كثير من الصعاب والمخاوف فيواجهونها برجالهم الأقوياء الصناديد، الذين تدين لهم بقية القبيلة أو العشيرة بالفضل والتقدير والاعتزاز .

ويبدو أن رجل البادية تصوّر أن الإسلام حين يدعو إلى المساواة ، فهو ينزل بأقدار الناس أو يرفعها ، رغبة فى إعزاز أولاء أو إذلال هؤلاء ، دون معيار أو ميزان ، وهو ما جعله يطرح سؤاله مستنكراً :

" ألا إن صاحبكم هذا - يقصد النبي - صلى الله عليه وسلم - وضع كل فارس ابن فارس " ويقصد بكلمة " وضع " أى أنزله عن مكانته أو قلل من قدره وقيمته ، وفى الوقت ذاته رفع كل راع ابن راع ، أى وضعه فى مكانة أعلى لا يستحقها ولا تليق بهورجل البادية هذا يستنكر - كما هو واضح - أن يتساوى الفارس بالراعى ، ويرى فى ذلك خللاً فى المعايير وانقلاباً فى الموازين ... ويستشف من هذا الفهم أن الرجل لا يدرك كنه الإسلام ولا طبيعته ، ولعل له عذره فى هذا السياق فهو يعيش فى البادية ، ولا يتصل بالقرى أو الحضر ، التى تبدو فيها المعرفة متاحة أكثر من الصحراء، ولذلك يستغرب أن يتساوى الفارس والراعى. وهنا يلقنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - درساً بليغاً ، عن طريق الإقناع والتاريخ فهو - صلى الله عليه وسلم - يمسك بمجامع جبته ، ويواجهه أولاً بسؤال استنكارى يقابل سؤله :

" ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ؟ "

واللباس هو الثياب التى يرتديها البدوى المستنكر لمساواة الفارس بالراعى ... وكأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول له : : إن هذه الثياب الجميلة المزركشة التى ترتديها لا تليق بك - لأنك تسأل سؤلاً لا يخرج من فم عاقل يفكر تفكيراً سليماً.

" ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ؟ "

وهنا يؤكد النبي - صلى الله عليه وسلم - على قيمة العقل ، التى يسعى نفر من خصوم الإسلام أو أديائه إلى الإشارة إليها بما ينتقص من موقف الإسلام من قيمة العقل ، بينما القرآن الكريم والحديث الشريف وتراث الأمة الماضى ، تجمع كلها على أهمية العقل فى الإسلام وضرورته فى مجال الإيمان والعمل جميعاً . وما أكثر الآيات والأحاديث والمواقف التى جعلت للعقل مكانة تقع فى ذروة الفكر الإسلامى ، وتؤكد على ضرورته للوصول إلى الإيمان والالتزام بالطاعة .

الفارس و الراعى - ٢

رأينا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم فى حديث عبد الله بن عمر؛ رضى الله عنه، قد أخذ بمجامع جبة الرجل البدوى الذى استنكر مساواة الفارس بالراعى، وسأله مستنكراً: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟ "ثم قص عليه وصية نوح-عليه السلام- وهو يحتضر لابنه .

ويكمل عبد الله بن عمرو الحديث فيقول بعد أن نهى نوح - صلى الله عليه وسلم - عن الشرك و الكبر:

قال : أو قيل ، يا رسول الله : هذا الشرك ، قد عرفناه ، فما الكبر؟

قال : أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان ؟

قال : "لا" ؟

قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟

قال : "لا" ؟

قيل : يا رسول الله فما الكبر؟

قال : " سَمَهُ الْحَقَّ وَعَمَّصُ النَّاسِ " .

.....

.....

بعد أن بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - قيمة العقل فى المنهج الإسلامى للحياة واستنكر أن يكون رجل البادية بهذه الهيئة المهيبة واللباس المبهر، دون أن يفكر فى حقيقة المساواة فى الإسلام بين الفارس و الراعى، ويعتقد -بشكل مقلوب- أن الإسلام يقلل من قيمة الأول ويرفع من قيمة الآخر، فإن الرسول-صلى الله عليه وسلم- يشرح المنهج الإسلامى الذى يرسم علاقة المسلمين ببعضهم من خلال أثر تاريخى نبوى يرتبط بسيدنا نوح عليه السلام وهو يحتضر حيث أوصى ابنه وصية مهمة يجب أن يفقهها رجل البادية، وكل رجل ينتمى إلى الإسلام، أو غير الإسلام، لأنها ترة فرية ظالمة، ودعوى باطلة، كما تفسر المنهج الإسلامى تفسيراً دقيقاً وصحيحاً.

نوح -عليه السلام- يوصى ولده، ويقص عليه الوصية التي تتلخص فى أمرين ونهيين. الأمران يتعلقان بالإيمان والعبادة، والنهيان يتعلقان بالسلوك والسيرة .
فأما الأمران اللذان يتعلقان بالإيمان والعبادة فهما لا إله إلا الله، وسبحان الله ويحمده .

لا إله إلا الله . هى الأمر الأول ويتعلق بالإيمان وتوحيد الله عز وجل . ومن يؤمن بوحداية الله ، فقد اطمأن قلبه وسار على النهج المستقيم ، وصار قوياً بربه لا يخشى أحداً غير ، ولا يرهبه جبروت أو طغيان أو خوف على حياة أو رزق . إن التوحيد معناه التسليم المطلق لله ، فى كل الأمور ، والاعتماد عليه فى كل الأعمال والأحوال ، وهو ما يجعل المسلم يشعر بضآلته أمام القوى الجبار ، فلا يتكبر ولا يختال ولا يغتر ...

ومن ثم نفهم قول نبي الله نوح - عليه السلام - فإن السموات السبع ، والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله إلا الله فى كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمه قصمتهن لا إله إلا الله "

ومعنى هذا أن السموات السبع والأرضين السبع ، وهن أعظم ما خلق الله وأضخمه أيضا ، ولا يستطيع الناس جميعاً أن يؤثروا عليهن بما يخرجهن عن هذه الضخامة وتلك العظمة، إنهن يتواضعن أمام عبارة لا إله إلا الله... لسبب بسيط جداً هو: أن الله هو الذى خلقهن وهو وحده - القادر عليهن، وهو سبحانه الذى يستطيع أن يفرقهن ولو كن كتلة واحدة صماء، أو حلقة مبهمه كما ورد فى الحديث الشريف.
أما الأمر الآخر، فهو "سبحان الله ويحمده" ، وحين نطق بهذه العبارة البسيطة فى كلماتها العظيمة فى دلالاتها، فإننا نؤكد على التوحيد أولاً ، ثم نعلن الطاعة والالتزام بأوامره، ونواهيه ثانياً. وتسبيح الله هو تقديسه وتعظيمه، وحمده هو الاعتراف بفضله وشكره، على نعمائه ، وهو ما يعنى أن "سبحان الله ويحمده" عبادة

لله الذى أمرنا أن نتحدث عنه بالعبرة الإيمانية الأولى "لا إله إلا الله" ... إن تريد "سبحان الله وبحمده" عبادة من أفضل العبادات ومفتاح للرزق ، وقد ورد فى فضلها وعطاؤها الكثير من الأحاديث والشروح .

أما النهيان ، فيتربتان على الأمرين السابقين ، وهما ترك الشرك والكبر ... لقد عرف الصحابة معنى الشرك ، وهو ما يتناقض مع لا إله إلا الله ، أو ما يجعل لله شريكاً أو معيناً أو وسيطاً ... فالله وحده هو مالك الملك، وهو الأحق بالعبادة والطاعة دون سواه .

ولذلك قال بعض الصحابة : يا رسول الله ، هذا الشرك ، قد عرفناه فما الكبر ؟

وكأنهم يسألون عن موضوع ملتبس . وهو ملتبس فعلاً بدليل أن رجل البادية المعجب بنفسه والمستنكر للمساواة بين الفارس والراعى ، لم يعرف ما هو الكبر ؟ تساءل الصحابة عن الكبر . أهو اللباس الحسن ؟ " أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان ؟ " أى مزيان بسيور جلدية مما يدل على الفخامة والتميز . ويرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالنفى ، فيتساءلون : أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ كناية عن الأهمية الاجتماعية للشخص وسط قومه ، ويرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالنفى .. ويطلب الصحابة معرفة ما هو الكبر . فيوضحه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً سفه الحق وغمص الناس " . وسفه الحق ، هو عدم قبول الحق ورفض الخضوع له أو النزول عنده . وهذا هو الشق الأول فى مفهوم الكبر .

أما غمص الناس ، فهو الزاوية بهم والاستخفاف ، وعدم المبالاة ، واحتقارهم والتعالى عليهم، وهذا هو الشق الثانى فى معنى الكبر.. فلا اللباس الحسن، ولا المكانة الاجتماعية مهما علت ، تعنى الكبر، ولكن الكبر رفض القبول بالحق والاستعلاء المردول على الناس ، وهو ما ينبغى أن يفهمه رجل البادية وكل رجل أو امرأة يؤمن بدين الله ... وهنا تتحقق المساواة بين الفارس والراعى بقدر إيمانهم واستقامتهما .

أسرى هوازن

أسرى هوازن - ١

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - رضى الله عنه - قال :
كُنَّا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بحدنين ، فلما أصاب من هوازن ما
أصاب من أموالهم وسبائهم ، أدركه وفد هوازن بالجعراثة ، وقد أسلموا ، فقالوا :
يا رسول الله لنا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخَفَ عليك ،
فأمنن علينا من الله عليك ، وقام خطيبهم زهير بن صرد ، فقال :
يا رسول الله ، إنما فى الحظائر من السبائ خالاتك ، وعماتك ، وحواضنك اللاتى
كُنَّ يَكْفُنك ، فلو أننا مَحْنَأ ابن أبى شمر ، أو النعمان بن المنذر ، ثم أصابنا منهما مثل
الذى أصابنا منك رجونا عائدتهما ، وعطفهما ، وأنت خير المكفولين ، ثم أنشد أبياتا ، قال
فيهما :

فإنك المرء نرجوه و نَدْخِر

ممزق شملها فى دهرها غير

واستبق منا فإننا معشر زُهْر

و عندنا بعد هذا اليوم مدْخِر

امن علينا رسول الله فى كرم

امن على بيضة قد عاقها قدر

و ختمها بقوله :

لا تجعلنا كمن شالت نعمته

إننا لنشكر آلاءً وإن كُفِرَتْ

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :-

نساؤكم و أبناءكم أحبُّ إليكم ، أم أموالكم ؟

فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا: أبناءنا، ونساؤنا

أحب إلينا...."

*** **

نعيش مع هذه القصة، لنرى منهجاً فى التعامل والسلوك يرسيه الرسول
- صلى الله عليه وسلم - مع المسلمين عامة، وقومه خاصة، كما نطالع نمطا من أنماط الحياة
العربية على عهد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم ، وهو نمط الحرب والانتصار فيها
وموقف الأسرى الذين يتخلفون بعد هذا الانتصار، وكيفية البت فى أمرهم ومصيرهم .
ومن خلال القصة نتعرف على منطق العلاقات السائد فى القبائل العربية ، وخاصة
إذا ارتبط ذلك بالإنتماء أو التربية أو الرعاية .

وحنين وإد بين مكة والطائف وهو مكان الموقعة التي جرت بين المسلمين وأهل حنين، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، بعد هزيمة ملحوظة في بداية المعركة، نتيجة لاعتقاد المسلمين أن كثرتهم ستحقق لهم النصر، وما دروا أن النصر يأتي من عند الله، شريطة أن يعد المسلمون العدة بقدر استطاعتهم، ويأخذوا بالأسباب الممكنة، ويُخلصوا في قتالهم وجهادهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعركة بقوله تعالى :-

"لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ

جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة التوبة الآيات من ٢٥-٢٧)

وبعد انتهاء المعركة وتحقيق النصر، لحق وفد من هوازن بعد إسلامهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكان اسمه الجعرانة، ويقع على بعد سبعة أميال من مكة إلى الطائف، ليطلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يمن عليهم، ويطلق سراح أسراهم، ويعطف عليهم بما أفاء الله عليه في المعركة من مال وغنائم.

وقد اتخذوا لطالبهم طريقة مؤثرة في الاستعطاف والاسترضاء، فذكروا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن لهم أصلاً وعشيرة، مما يعنى أن مكانتهم في قومهم كبيرة، وأن ما أصابهم من بلاء السبى والاسترقاق لهو أمر عظيم عليهم وعلى أهليهم، وقد كان السبى والاسترقاق أو الأسر؛ هو منطق الحرب في هذا الزمان، واستمر حتى يومنا هذا، وإن كان الأمر يختلف وفقاً للمعاهدات الدوائية التي تنظم وضع الأسرى، وتجعلهم غير خاضعين للرق أو العبودية، كما كانت الحال في الماضي.

وقد قدّم وفد هوازن خطيباً مقوّهاً يعرض المسألة بما يرقق قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ويجعله يستجيب لرغبتهم، حيث عرض الموضوع عرضاً مؤثراً، وأعقبه بشعر يمدح فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - ووجه التأثير في خطبة زهير بن صُرّة، خطيب

هوازن ، أنه نكّر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه تربّى في هوازن ، حيث أرضعته حليلة السعدية ، من بنى سعد ، وهم من هوازن ، فصارت هوازن أهله : أمه من الرضاغة وخالاته ، وعماته ، وأخواته ، ومنهم الشيماء أخته من الرضاغة وهي بنت الحارث بن عبد العزى من بنى سعد بن بكر ، وأمها حليلة السعدية ، يقول زهير : يا رسول الله إنما فى الحظائر (أماكن السبى) من السبايا خالاتك، وعماتك، وحواضنك (مربياته أو مرضعاته) اللاتى كنّ يكفلنك أى يرعينك.. فلو أنا مَلَحْنَا ، أى أرضعنا ابن أبى شمر، أو النعمان بن المنذر، ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك رجونا عأدتهم عطفهما وأنت خير المكفولين .

وكأن زهيراً ، يقارن بين ما كان سيفعله ابن أبى شمر والنعمان لو أنهما أسرا هوازن ، وبين ما ينتظره من خير المكفولين الذين أرضعتهم هوازن وكفلتهم وهو النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى صار منتمياً إليهم ومنتسباً... وهنا نتعرف على موقفه – صلى الله عليه وسلم – فيهم .

أسرى هوازن - ٢

خير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد هوازن بين الأحساب والأموال
فاختاروا الأبناء والنساء .

" فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : أما ما كان لي ولبنى عبد
المطلب فهو لكم وإذا أنا صليتُ بالناس ، فقوموا و قولوا : إنا نستشفع
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - في أبنائنا و نساءنا ، سأعطيكم عند ذلك ، وأسأل
لكم "

فلما صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس الظهر ، قاموا ، فقلوا
ما أمرهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم :

" أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم " .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم .

فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم .

فقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا .

فقال العباس بن مرداس الأسلمي : أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم : بل ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وقال عيينة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

" من أمسك منكم حقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فريء
تصيبه ، فرددوا إلى الناس نساءهم ، وأبنائهم " .

.....

رأينا كيف حاول زهير بن صرث ؛ خطيب هوازن ، أن يستميل الرسول - صلى
الله عليه وسلم - إليه وإلى قومه ، لإطلاق سراح أسراهم ورد أموالهم إليهم بعد
انتصار المسلمين في موقعة حنين ، وقد ذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم -

بنشأته فى بنى سعد الذين ينتمون إلى هوازن ، فصاروا أقارب له بالرضاعة ، فمنهم خالاته و عماته و أخوته و أخواته ، وكانت بينهم الشيماء أخته من الرضاعة ، ثم ضرب له مثلاً بابن أبى شمر والنعمان بن المنذر ، وكانا من ملوك هذا الزمان فلو أن واحدا منهما نشأ فى هوازن ، وأسر أهلها وغنم أموالها ، لتعطف عليهم وردّ الأسرى والمال .

وزد على ذلك أن مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقصيدة محكمة من الشعر ، حملت معانى طيبة ومؤثرة و حتمها بالرجاء والشكر والعرفان .
لقد خيرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم بين الأحساب والأموال ، فاختاروا الأولى وقالوا : أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا ، وهنا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - " أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب (أى قومه) فهو لكم". ثم طلب منهم أن يقولوا بعد أن يصلى بالناس :

" إنا نتشفع برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أبنائنا ونسائنا ."
لقد ردّ لهم الجميل على تربيته وتنشئته وإرضاعه صغيراً ، بأن ردّ عليهم ما يملكه هو وبنو عبد المطلب ممن يستطيع التصرف فى ممتلكاتهم أو أنصبتهم من الفىء والغنائم ، أما ما ذهب إلى غيره؛ وغير قومه من المسلمين . فلا يستطيع السيطرة عليه أو التصرف فيه ، لأنه صار ملك الآخرين ، وقد وجد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - حلاً يرضى النفوس ويؤف القلوب ، ويجعل غير قومه من المسلمين يوافقون عن طيب نفس على تسليم ما عندهم ، وردّه إلى هوازن تكريماً له .
كان الحل هو أن يطلب وفد هوازن شفاعته النبى - صلى الله عليه وسلم - لدى المسلمين وشفاعة المسلمين لديه - صلى الله عليه وسلم - كى يرتوا عليهم أبناءهم ونساءهم ، ووعدهم أنه عند الاستجابة سيعطيهم ما عنده ويتشفع لهم ...وهو ما كان ...

فقد صلى الظهر، وقام وفد هوازن، وفعل ما أمر به الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، وهنا نجد نونجاً للسماحة الإسلامية يقدمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما رضى لنفسه أن يقهر المسلمين على شىء لا يريدونه، أو يسلبهم حقاً لا يملكه، بل إنه اتخذ سبيل الرأفة، وتطبيب الخواطر، وجعل هوازن تطلب الشفاعة منه وإليه، مما يرقق القلوب، ويلين الجوانب، ويجعل المسلمين يتنازلون عن طيب نفس، ورجاء الآخرة، وصلة لرحم رسول الله - صلى الله عليه وسلم، فقد صارت قرابته فى الرضاع لبنى سعد من هوازن، كأنها رحم حقيقية.

وتكون استجابة المسلمين للشفاعة نمونجاً للحرية بأوسع معانيها، والاستقلال بأرعى صورته، وقد بدأ - صلى الله عليه وسلم - بنفسه، فقال: "أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب، فهو لكم" و تبعه المهاجرون والأنصار قائلين: ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم، ولم يقولوا لهوازن، فى لفتة ملحوظة تكريماً لرسولهم وقائدهم وحببيهم - صلى الله عليه وسلم.

أما بعض الصحابة، فقد رفضوا التنازل عن أبناء هوازن ونسائها، كما فعل الأقرع بن حابس، زعيم تميم، و عيينة بن بدر زعيم فزارة والعباس بن مرداس زعيم بنى سليم. ولكن قبيلة الأخير رفضت رأيه، وعارضته، وقالت: بل ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم.

وهنا نزل الرسول - صلى الله عليه وسلم - على رأى من تنازل ورأى من عارض، فقال:

" من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض، أى ست من النوق، و الفريضة بمعنى " ناقة"، وطالبهم نظير هذه الفدية أن يردّوا إلى هوازن نساءهم وأبناءهم، وهو ما أدخل الفرحة إلى قلوب هوازن التى ربته ورعته صغيراً.

أسرى هوازن - ٣

بعد أن طلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحصل كل رافض لردّ الأسرى على ست من النياق ، ركب وتبعه الناس يقولون :

يا رسول الله ، أقسم علينا فيّأنا ، حتى اضطررنا إلى شجرة ، فانتزعت عنه رداءه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

"يا أيها الناس: ردّوا علىّ ردائي، فوالذي نفسى بيده، لو كان لكم عدد شجر تهامة نعمةً لقسمته عليكم ، ثم ما لقبتموني : بخيلا ، ولا جباناً ، ولا كذاباً" ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنب بعير ، وأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين إصبعيه ، وقال :

"أيها الناس: و الله ما لي من فيئكم هذا، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط و المخيط ، فإن الغلول عارٌ ، ونارٌ ، و شنار ، على أهله يوم القيامة" .

فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعرٍ ، فقال : يا رسول الله أخذت هذه لأخيط بها بردعة بعير لي .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " أما حقى منها لك "

فقال الرجل : أما إذا بلغ الأمر هذا ، فلا حاجة لي بها ، فرمى بها عن يده .

.....

تؤكد القصة النبوية على حق الاختلاف ، و التمسك بالحق و الممتلكات ، وهو ما يعطى صورةً مبهجة لمفهوم العلاقة بين القائد و الأتباع ، و الحاكم و المحكوم ، فى إطار من الاحترام و التوقير ، و هى صورة أكبر و أوسع مما يعرف اليوم بالديمقراطية ، لأنها تهدف فى الأساس إلى تأليف القلوب ، و توحيد المشاعر ، و تطيب النفوس .

لقد طلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ممن أمسك بحقه ، أن يكون له بكل إنسان ست فرائض ، أى ست من النياق ، ليردّ على هوازن نساءها و أبناءها ، و تعود هوازن سعيدة بالتّام أسرها و عائلاتها و عشائرها . و هى مكرمة لن تنساها هوازن

للنبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام ، الذين تنازلوا - فى معظمهم - عن طيب خاطر ، وأعادوا النساء والأبناء إلى ذويهم بعد الأسر فى حرب ضارية . ولنا أن نعلم كم هى قاسية على العرب فى ذلك الزمان ، بل فى كل زمان ، أن يذهب النساء والأبناء إلى الأسر ، حيث الرقّ والعبودية للأسرى فى ذلك الحين .

لقد تبع الناس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعدئذ ليقسم لهم الفىء ، أو الغنائم وألحوا عليه ، حتى سقط عنه رداؤه بفعل شجرة ، اقترب منها ، أو اضطر للاقترب منها ، وهنا علمهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - درساً مهمّاً ، بعد أن طلب منهم أن يرتبوا عليه رداءه فهو يقسم بالله الذى نفسه بيده ، أنه لو كان لهم فىء كثير لقسمه لهم وشبه هذا الفىء أو النعم أو الإبل بعدد شجر تهامة ، إشارة إلى كثرته ، ثم يؤكد لهم إنه بعد تقسيمه عليهم ، فلن يكون بخيلاً أو جباناً أو كذاباً... ويألها من صفات كريهة إذا التصقت بالمسلم أو اتصف بها .

إن البخل صفة قبيحة ، وتكون أشد قبحاً إذا كان صاحبها يملك سعة من المال ووفرة .
والجبن خلة بشعة ، وتكون أكثر بشاعة ، فى المواقف التى تحتاج إلى حسم وتضحية .

والكذب ممارسة لأكثر السلوكيات رذالة ، ووحشية ، لأنها توقع الكذاب والمكذوب عليهم فى شر مستطير ؛ ولا يكون المؤمن كذاباً بحال من الأحوال .
وسوف نجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقسم مرة أخرى بلفظ الجلالة - وتلك آية فى البلاغة النبوية أمام هذا الموقف الذى يتجمع فيه المسلمون وينتظرون من الفىء - ليقول لهم :

"والله ، ما لى من فيئكم هذا ، ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمخييط " . وهو هنا - صلى الله عليه وسلم - يشير إلى آية الأنفال التى تقسم الغنائم فى قوله تعالى :-

" وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (سورة الأنفال الآية ٤١)
ولهذا يطلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يؤدوا الخياط والمخييط في
إشارة إلى عدم قبول أى زيادة عن النصيب المستحق ، وهو ما يؤكد بقوله : فإن "
الغلول عار ونار ، وشنار " على أهله يوم القيامة " . ويالها من صورة مرعبة ، لمن
يأخذ ما ليس له ، وكأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرسم للمسلمين مآل
أو مصير من يخون الأمانة ويتجاوز العدل ويستولى على حق غيره؛ حيث يعيش العار
والنار والفضيحة يوم القيامة .

ولعل هذه الصورة هى التى حركت رجلاً من الأنصار جاء بكبة أو شعر
ملفوف بعضه على بعض ليخيط برذعة بعير ، أو فراشا يوضع تحت راكب البعير ،
ويسأل عنها ؛ وهل تدخل فى التحذير الذى أطلقه الرسول - صلى الله عليه وسلم -
من خلال حديثه عن الغلول . فيجيبه - صلى الله عليه وسلم - بأنه يتنازل عن حقه
فيها له . فإذا بالرجل يرمى بها ، لأن الأمر يتعلق بالحقوق فى أصغر مكوناتها
وأبسطها ، ويقول : أما إذا بلغ الأمر هذا فلا حاجة لى بها .

وفى مجمل القصة النبوية الشائقة ، فإن الحقوق قضاء ، وإن التنازل عنها لا
يتأتى بالخداع أو الاختلاس أو النصب ، ولكنه يتأتى بالرضا وطيب النفس
وسمحة القلب . ولنا فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسوة حسنة ، حين
أكرم هوازن ، وأعطاهم وأحسن إليهم ، فرجعوا مسررين بدينهم وبما أفاء الله
عليهم .

استشهاد حمزة : سيد الشهداء

استشهاد حمزة : سيد الشهداء - 1

عن جعفر بن عمرو الضمري قال :

خرجت مع عبيد الله بن عدى، فلما قدمنا حمص، قال لى عبيد الله بن عدى: هل لك فى وحشى نساله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشى يسكن حمص، فسألنا عنه فقيل لنا: هو ذاك فى ظل قصر، كأنه حميت.

فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا، فرد السلام، قال: وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشى إلا عينيه، ورجليه.

فقال عبيد الله : يا وحشى أتعرفنى ؟ قال : فنظر إليه ، ثم قال : لا ، والله إلا أنى أعلم أن عدى بن الخيار تزوج امرأة يقال لها : أم قتال بن أبى العيص ، فولدت له غلاماً بمكة ، فكنت أسترضع له ، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه ، فلكأنى نظرت إلى قدميك .

قال : فكشف عبيد الله عن وجهه ، ثم قال : ألا تخبرنا بقتل حمزة ؟

قال : نعم . إن حمزة قتل طعيمة بن عدى بن الخيار ببدر ، فقال لى مولاي جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة بعمى فأنت حرّ.... (حديث صحيح ، أخرجه البخارى و آخرون)

.....

حمزة سيد الشهداء ، هو عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد كان فارساً صنيدياً ، أسلم ونافع عن الإسلام حتى لقى ربه شهيداً فى غزوة أحد ، بعد أن ضرب مثلاً نادراً فى البطولة والإخلاص للإسلام و نبيه - صلى الله عليه وسلم - مما جعله مرصوناً من المشركين الذين أكل الحقد قلوبهم وأعمى أبصارهم .

وكان الذى قتله فى الميدان عبداً يسمى وحشى ، اقترف جريمته وهو مشرك ، إرضاءً لسيده كى يتحرر من العبودية، ولكنه فيما بعد، أسلم وحسن إسلامه، وشارك فى غزوات المسلمين ضد المشركين والمرتدين، وقتل مسيلمة الكذاب بأرض اليمامة ، ليكافىء بقتله قتل حمزة بن عبد المطلب ؛ رضى الله عنه .

وقصة قتل حمزة سيد الشهداء ، تقدم لنا صورة للمشاعر الإنسانية الطبيعية التى لا يمكن أن تتجاهل الواقع ، أو تدعى أنه غير موجود ، فالحديث الشريف كما سيأتى يطلعنا على موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من وحشى ، حيث طلب منه حين رآه وعرفه أن يغيب وجهه عنه ..فهو فى كل الأحوال قاتل عمه، أحب الناس إليه، وسنده فى الملتمات ، ودرعه فى الدعوة ، ورحمة الذى لا ينقطع .

"**غيب وجهك عنى**" ! مضمون الطلب الذى وجهه الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- إلى وحشى ، مع أنه حضر إليه وأسلم ، وإذا كان محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يستطيع أن ينكر مشاعره تجاه وحشى ، أو تجاه من أكلت كبد حمزة بعد استشهاده ، وهى هند بنت عتبة ، أم معاوية بن أبى سفيان ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يظلمهما ، ولم ينتقم منهما بعد أن أسلما وحسن إسلامهما، بل كان يجيب على أسئلة هند واستفساراتها فى قضايا الشريعة ، دون أن يجعل لمشاعره سلطاناً عليه ، بل إنه فى يوم فتح مكة ، عفا عن أهلها جميعاً ، وقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، بل إنه جعل من دخل دار أبى سفيان آمناً، مثل من يدخل البيت الحرام، وهو يعلم أن أبا سفيان وزوجه هند بنت عتبة ، كانا من أشد الناس على الإسلام والمسلمين فى جاهليتهما .

والقصة النبوية التى بين أيدينا ، تبدأ من النهاية ، كما يقولون فى لغة النقد الأدبى فبطلها الرئيسى وهو وحشى ، يبدو فى أواخر حياته ، فقد قارب الثمانين ، أو تجاوز السبعين على الأقل كما نفهم من رواية أخرى للقصة رواها ابن اسحق ، وهو يعيش فى حمص شمال بلاد الشام ، ويحكى لنا قصة قتله لحمزة ومسيلمة بعد مرور وقت طويل ، يستعيد فيه الأحداث والشخصيات .

لقد كان يسكن فى قصر، ويبدو منظره أقرب إلى السمنة والضخامة "كأنه حميت" أى رزق كبير، والرزق هو إناء ضخم يملأ بالسوائل التى يراد تخزينها، ولعله يشبه البرميل فيما نعرف اليوم .

ويبدو أن شيخوخته جعلت عبيد الله بن عدى يسأله عن نفسه ، فقد كانت هناك علاقة قديمة بينه وبين أسرته ، ومع أن عبيد الله ، كان مختفياً تحت عمامته ، أو معتجراً بها فلا يرى منه وحشى إلا عينيه ورجليه ، فإن نكاه وحشى الحاد كان حاضراً ، حين نظر إلى رجليه وقارن بينها وبين رجلى طفل صغير رأهما قبل خمسين عاماً ، حين ولدته أمه ، وكان تسترضع له ، أى تطلب إرضاعه لدى المرضعات، وكان وحشى يحمله مع أمه ... فيقول: فلكنأنى نظرت إلى قدميك . فيكشف عبيد الله عن وجهه ... ويتحقق وحشى من صدق نظرتة ، ويتعرف على عبيد الله ، ويطمئن إليه ...

وهنا يسأله عبيد الله عن قصة مقتل حمزة ، فيصارحه بالحقيقة المتمثلة فى صفة عقدها معه جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمى (يقصد عمه طعيمة بن عدى بن الخيار الذى قتل يوم بدر) فأنت حر...وكان جبير بن مطعم عرف كيف يستدرج العبد ليقتل سيد الشهداء فيسدّد إليه حربة فى مكان حسّاس تقضى عليه على الفور!

استشهاد حمزة : سيد الشهداء - ٢

حين عقد جبير بن مطعم صفقة مع وحشى لقتل سيد الشهداء حمزة، وقال

له: إن قتلت حمزة بعمى فأنت حرّ، قال وحشى لعبيد الله بن عدى :

فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْن -وعَيْنَيْن جبل حيال أحد بينه وبينه وأد-

خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سِبَاعُ، فقال: هل من مبارز؟

قال : فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع ، يا ابن أم أنمار...

أتحدّ الله ورسوله ؟ !

قال : ثم شدّ عليه ، فكأن كأمس الذهاب ، وكمنّت لحمزة تحت صخرة فلما

دنا منى رميته بحربتي ، فأضعها فى ثنيتته، حتى خرجت من بين وركيه ، فكان ذلك

العهد به .

فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقامت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت

إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسلاً ، **ف قيل لى :**

- إنه لا يهيج الرسل

.....

فى القصة النبوية نلاحظ أن تقاليد القوم وعاداتهم فى الجاهلية ، كانت

تحدّ الثأر والانتقام ، وهو ما رأيناه فى الصفقة التى عقدها جبير بن مطعم مع

وحشى من أجل أن يقتل حمزة بن عبد المطلب ، الذى قتل عمه طعيمة بن عدى بن

الخيار يوم بدر....ومع أن المعركة كانت بين طرفين معنويين المشركين والمسلمين ،

ويفترض أن من قتل هنا أو هناك لا يمثل نفسه بقدر ما يمثل الطرف أو الفريق

الذى ينتمى إليه ، فإن جبير بن مطعم ، وفقاً للتقاليد والعادات الجاهلية ، عدّ الأمر

مسألة شخصية ، وثأراً خاصاً ينبغى أن يسعى إليه ويحققه ، وهو ما دفعه إلى

صفقته مع العبد " وحشى " ليقتل حمزة مقابل تحريره من العبودية .

وإذا قارنا جبير بن مطعم - طالب الثأر لعمة ، بموقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى كره رؤية وحشى - كما سيأتى فى القصة - دون أن يسعى للثأر منه أو الانتقام ؛ ندرك عظمة الإسلام ، فى العفو والمصالحة ، انطلاقاً من منهجه الذى يجب ما قبله ، ويمحوه ، ويفتح صفحة جديدة ، لحياة جديدة ، مليئة بالأمل والعمل ، والإخلاص والرحمة .

ويحكى وحشى ما فعله لينفذ الصفقة الدامية التى عقدها مع جبير بن مطعم ، فيقدم لنا المكان والشخصيات التى شاركت فى أحداث القصة وهيات لإتمام الصفقة الدامية القادرة .

فقد خرج وحشى مع قريش وحلفائها الذين توجهوا إلى يثرب أو المدينة المنورة ، لينتقموا أو يردوا اعتبارهم الذى ضاع فى يوم بدر بهزيمتهم الساحقة التى لم يتوقعوها . ويسمى وحشى غزوة أحد بعام عينين وهو اسم جبل قريب من أحد بينهما وأد . ويصف لنا مشهد القتال وفقاً للتقاليد السائدة فى الحروب يومئذ ، حيث يخرج أولاً بعض فرسان الفريقين المتحاربين للمبارزة ، وتكون هزيمة بعض المتبارزين دلالة ما ، على هزيمة الفريق المنتسب إليه أو على الأقل تكون ضربة معنوية له تؤثر فى سير المعركة . وهو ما حدث بالفعل ، وإن كانت النتائج النهائية للمعركة قد فاجأت المسلمين ، وجاءت على غير المستوى الذى وصلت إليه المبارزة والقتال بعدها . بدأت المبارزة ، بقول أحد المقاتلين أو الفرسان المشركين ، **ويدعى "سباع" :**

- هل من مبارز ؟

وهنا خرج إليه البطل الجسور حمزة بن عبد المطلب ، عم النبى - صلى الله عليه وسلم - وخاطبه : يا سباع ، يا ابن أم أنمار ، وكانت مشهورة فى مكة بختان الإناث ، أتحد الله ورسوله ؟ أى تعاند الله ورسوله ، والمحادة هنا بمعنى المحاربة والمعاداة .

المسألة عند حمزة ، مدافعة لأعداء الله ورسوله، أى مرتبطة بالإيمان والعقيدة، قبل أن تكون مرتبطة بالنصر والغلب، وسيادة فريق على فريق.. واندفع حمزة بالإيمان والعقيدة ليشدّ على سباع ، ويقضى عليه ، فكان كأمس الذاهب ، أى صار عدماً ، وضاع مثلما تضيع الأيام ، فلا يعود منها يوم ، وتنقضى بمرور الزمان .

بعد مصرع سباع ، ينفذ وحشى خطته الماكرة الغادرة ، فيكمن لحمزة تحت صخرة ، على العكس من الفرسان ، الذين تدفعهم أخلاقهم إلى المواجهة المباشرة ، ويحرّكهم النبل إلى عدم النيل من الخصم وهو غافل أو بدون سلاح أو بغير قدرة على الدفاع عن النفس .

وحشى عبد، يهّمّه أن ينفذ ما يخصّه من الصفقة لينال حريته، ولا تهمة الوسيلة مهما كانت خسيسة . منطلق الغاية يبرر الوسيلة هو الذى طغى عليه ، وجعله يكمن خلسة تحت صخرة ليصوب حريته أسفل بطن حمزة فأضعها فى ثنّيته ، حتى خرجت من بين وركيه ! وقضى حمزة شهيداً ، بل سيد الشهداء ، نتيجة الغدر الذى قام به وحشى!

لقد عاد "وحشى" إلى مكة بعد غزوة أحد ، وظل بها حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد أن عفا عنهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويبدو أن "وحشى" أحسّ بفداحة جرمه الذى اقترفه فى حق حمزة ، وتصوّر أنه مطلوب لا محالة من أحدٍ ما، فخرج إلى الطائف ليقيم بها، حتى كانت محاولته الذهاب مع الرسل للقاءه - صلى الله عليه وسلم - وهناك كان أمر آخر.

استشهاد حمزة : سيد الشهداء - ٣

رجع وحشى إلى مكة بعد فعلته الغادرة بقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد
المطلب وظل بها حتى فشا فيها الإسلام ، ثم خرج إلى الطائف ، فأرسلوا إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - رسلاً ، فقيل له إنه لا يهيج الرسل .

قال : فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فلما رآنى **قال :** " أنت وحشى؟ ! "

قلت : نعم .

قال - صلى الله عليه وسلم : " أنت قتلت حمزة؟ ! "

قلت : قد كان من الأمر ما بلغك !

قال - صلى الله عليه وسلم : " فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى؟ ! "

قال : فخرجتُ ، فلما قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج

مسيلمة الكتاب ، **قلت :** لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقاتله فأكافىء به حمزة .

قال فخرجت مع الناس ، فكأن من أمره ما كان ، فإذا رجل قائم فى ثلثة
كأنه جملٌ أورقٌ ثائر الرأس ، فرميته بحربتى ، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من
بين كتفيه .

قال : ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته . فقالت جارية

على ظهر بيت : و أمير المؤمنين ، قتله العبد الأسود .

.....

لاشك أن غدر وحشى بن حرب الحبشى ، أو العبد الحبشى كما كان يسمى

أو يطلق عليه - كان يُطارده فيما بينه وبين نفسه ، ولهذا لم يمكث فى مكة بعد
الفتح مع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عفا عن أهلها جميعاً ، ودخل
الناس فى دين الله أفواجا عدا قلة ؛ كان من بينها وحشى ، ولذا ذهب إلى الطائف
لعله يكون بعيداً عن يد ثائرة على فعلته تطاله .

بيد أنه أراد أن يكفر عن جريمته ، ويدخل الإسلام ، وحشى أن يذهب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ف قيل له : إنه لا ييرتّ مسلماً ، ولا يهيج الرسل ، أى لا ينالهم منه إزعاج . فخرج مع القوم متوجهاً إلى المدينة المنورة ، وقدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويرى أنه قيل له - صلوات الله عليه وسلامه - هذا وحشى ، فقال :

"دعوه ، فلاسلام رجل واحد ، أحبّ إليّ من قتل ألف كافر" - وهذه الرواية التى نقلها ابن اسحق ، تبين لنا منهج النبي - صلى الله عليه وسلم - فى الدعوة وتقديم العفو والتسامح على الحساب والانتقام .
ويحكى وحشى ما جرى له عندما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث سأله :

" **أنت وحشى** " فيجيبه وحشى : نعم . فيسأله ، وكأنه -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يتأكد من فعلته ويتثبت : "أنت قتلت حمزة ؟ " فيجيبه وحشى : قد كان من الأمر ما بلغك ، وكأنه لا يريد أن يقول إننى قتلته فيثير أشجانه على عمه سيد الشهداء . فاكتفى بالقول قد كان من الأمر ما بلغك... وهنا تعبّر العاطفة النبوية عن نفسها فى إطارها الإنسانى الطبيعى ، دون أن يؤثر ذلك على موقف العقل من رجل دخل الإسلام ، والإسلام يجب أو يمحو ما قبله . فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم : فهل تستطيع أن تغيب وجهك عنى ؟

وفى رواية أخرى : غيب وجهك عنى . وفى الحالتين ، فإن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يريد أن يتذكر فعلة وحشى الشنعاء كلما رآه.. وهو ما نفذه وحشى بالفعل .

ولا شك أن " **وحشى** " قد اطمأن جانبه ، بعد الطلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتغيب وجهه عنه ، فراح يحاول التكفير عن فعلته الشنعاء التى

رسخت في أذهان المسلمين بقتل سيد الشهداء ، وإن كان الإسلام لا يحاسب أحداً على ما جرى قبله. ويبدو أن "وحشى" أراد أن يقوم بعمل يرتبط في أذهان المسلمين بالبطولة والشجاعة ، ويذهب ما في أذهانهم من مقتل سيد الشهداء .

ولهذا ، فإنه بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وارتداد بعض الناس ، وظهور بعض المتنبئين أو أدعياء النبوة مثل مسيلمة الكذاب ، وسجاح التميمية في أرض اليمامة ، على عهد أبي بكر - رضى الله عنه - كان فرصة ذهبية ، ليذهب وحشى مع المقاتلين ضد الرنة والذبوة الكاذبة ، وصمم على قتل "مسيلمة الكذاب" ، لعل فعله هذا يكافئ أو يساوى قتل حمزة بن عبد المطلب . وتم له ما أراد ، حيث رأى رجلاً قائماً في ثلثة أي في خلل جدار كأنه جمل أورق أى مغبراً من أثر الحرب ، وصار لونه يشبه لون الرماد ، نائر الرأس منكوش الشعر ، فرماه بحرته - وكان ماهراً في استخدام الحراب بحكم تربيته ، فاخترقت صدره ، حيث دخلت بين ثدييه ، وخرجت من بين كتفيه . وقام رجل من الأنصار بالإجهاز عليه بضربه على هامته بالسيف ، وقالت امرأة على ظهر بيت: قتله العبد الأسود .

كان قتل مسيلمة إيذاناً بفتح جديد وإقامة للدين مرة أخرى ، بعد أن حاول المرتدون هدمه ، والعودة إلى الجاهلية ، وتنصيب أنبياء كذبه .

لقد كان إسلام وحشى بن حرب الحبشي ، إضافة مهمة لحركة الإسلام ، مع ما اقترفته في جاهليته ، وهو الذي عبّر عن موقفه خير تعبير حين قال : "قتلت خير الناس وشر الناس" ويقصد بخيرهم حمزة سيد الشهداء الذي قتله في جاهليته ، وشرهم هو مسيلمة الكذاب الذي قتله في إسلامه ، ليكون ذلك عهداً جديداً للدعوة الإسلامية ... نسأل الله أن يوفقنا إلى الصواب ، ويجنبنا الزلل ، وهو المستعان .

رزق أخرجه الله

رزق أخرجه الله - ١

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال :
بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمّر علينا أبا عبيدة ، تتلقى عيراً
لقريش وزّادنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره .

فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - يعطينا تمرّة تمرّة . قال : فقلت له : كيف
كنتم تصنعون بها ؟! **قال** : نمصّها كما يمّصُ الصبيّ الثدي ، ثم نشرب عليها من
الماء ، فتكفيها يوماً إلى الليل ، وكنا نضرب بعصينا الخبط ، ثم نبله بالماء فنأكله .
قال : وانطلقنا على ساحل البحر ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة
الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر .

قال : قال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - وفى سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا .
قال : فأقمنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثمائة حتى سمنا.....

(حديث صحيح : أخرجه البخارى و آخرون)

.....

.....

تكشف هذه القصة نمطا من الحياة كان يعيشه الصحابة رضوان الله عليهم
بالصبر والرضا من أجل نصرته دينهم وعقيدتهم ، واتباعا لمنهج رسولهم - صلى الله
عليه وسلم - وطاعة لأوامره ، وفى سبيل ذلك يتحملون الجوع ، ويصبرون على العناء ،
حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

إنها - على كل حال - حياة الجهاد التى تفرض التقشف والزهد فى عرض
الدنيا من أجل تحقيق هدف أكبر ، وغاية أسمى ، وهى إعلاء كلمة الله ، ومقاومة
خصوم الإسلام و أعدائه .

لقد خرج المسلمون فى بعثة ، أى غزوة صغيرة أو سرية ، بقيادة أبى عبيدة بن
الجراح حيث أمّره الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجعله قائداً ، وذلك لترقب

وانتظار وترصد قافلة لقريش ، أو غير لقريش ، وكما نرى فالأمر هنا أمر مواجعة عسكرية بمستوى زمانها و مكانها . فالقافلة أو العير التي تحمل المؤن والبضائع لقريش ، ينتظرها المسلمون وهم مسلحون ، للاستيلاء عليها ، رداً على ما تفعله قريش بهم من مطاردة و تنكيل و محاصرة وشن غارات عليهم، وهذا يقتضى الخروج من المدينة المنورة ، و الذهاب إلى خط سير القافلة أو العير، ليتمكن النيل منها ، و السيطرة عليها ، و حرمان قريش من مورد ضخم للطعام و المؤونة و الرزق ..

ولكن البعثة بقيادة أبى عبيدة كانت تعاني عناءً شديداً ، وخاصة فى مجال الطعام أو التموين كما يطلق عليه فى المصطلح العسكرى هذه الأيام . فقد رزدهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - جراب - وهو وعاء من الجلد - فيه تمر ، لم يجد غير ، . **ومعنى ذلك أنهم** سيجوعون لا محالة ، و الجوع قد يفسد الخطة العسكرية، و يجعلها تخفق تماماً . ولكن أبا عبيدة بحس القائد الواعى الذى يستشرف المستقبل، و يدرك أهمية الغاية الكبرى التى يعمل من أجلها ، قرّر أن يتحكم فى كمية التموين المتاحة ، و هى جراب التمر ، ليضمن - على الأقل - فترة زمنية معقولة ، لاستمرار مهمته ، و بقاء رجاله صامدين حتى يؤدوا مهمتهم ، و يحققوا غايتهم .

لقد راح يوزع عليهم ، أو على واحد منهم ، ثمرةً ثمرةً ، أو ثمرة بعد ثمرة . و التمرة تبدو طعاماً بسيطاً للغاية ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولكنهم كانوا يمسون التمرة كما يمس الصبى الثدي من أمه ، ثم يشربون الماء بعدها ، و يصبرون على ذلك حتى يأتى الليل و قد كفتهم و أرضتهم .

لقد أضافوا إلى ذلك أمراً آخر ، وهو ضرب الخبط بالعصى . و الخبط هو ورق السلم كانوا يضربونه بعصيهم ، ثم يبلونه بالماء ، لأنه كان جافاً و يابساً ، و يأكلونه وهذا وقر لهم ، فرصة مقاومة الجوع ، و الاستمرار فى مهمتهم لانتظار قافلة قريش التى يترقبونها .

وهذا المنهج يكشف لنا عن صبر المؤمن المجاهدين ، وهم يدافعون عن إيمانهم وعقيدتهم ، فلا يتململون ولا يضجون بالشكوى ولا يفرطون فى مهمتهم النبيلة. ما كان أسهل عليهم من العودة إلى المدينة ، والبقاء فيها ، والاستمتاع بما يجدونه من طعام وشراب وظل ظليل ولكن طريق الجهاد غير ذلك تماماً ، فالمجاهد يتعرض لمصاعب ومشقات لا يتوقعها ، ولكنه يرّض نفسه على تقبلها وتحملها والصبر على مضاعفاتها، وهو ما فعله المجاهدون بقيادة أبى عبيدة فى بعثتهم التى وجههم إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

إن الجيوش الحديثة، تدرب جنودها على الصبر وتحمل المشاق، وخاصة فيما يعرف بالقوات الخاصة، مثل الصاعقة والمظلات والاستطلاع ونحوها، ليكون الفرد قادراً على التكيف مع المتاعب المحتملة ، وليستطيع تأدية مهمته بنجاح ، وحين يتعرض بعض المجاهدين للحصار أو النزول فى أماكن صعبة مقفرة، فإنهم يعتمدون على الله أولاً ثم يوظفون ما لديهم من تموين وطاقات بصورة جيدة ، حتى يخرجوا من مأزقهم أو يأتيتهم المدد والنجدة .

وهو ما جرى للصحابة فى بعثتهم بقيادة أبى عبيدة ، حيث رأوا حوتاً كبيراً وفرّ لهم التموين لمدة شهر فأقاموا عليه .

رزق أخرجه الله - ٢

وجدت بعثة المسلمين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح حوتاً ضخماً ، فأقاموا عليه شهراً ، وهم ثلاثمائة حتى سَمِنُوا . يقول جابر :

ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن ، ونقتطع منه الفدر كفدر الثور . فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً ، فأقعدهم فى وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فنصبه ، ثم نظر إلى أطول رجل فى الجيش ، وأطول جمل فحملة عليه ، فمرّ من تحته ، وتزودنا من لحمه وشائق .

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرنا ذلك له ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

" هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شئء فتطعمونا ؟ "

قال : فأرسلنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منه ، فأكله .

.....

.....

اكتفى المسلمون فى بعثتهم بقيادة أبي عبيدة بن الجراح بجراب التمر ، يؤزع عليهم ثمرة بعد ثمرة ، يمصونها ثم يشربون بعدها الماء . وكانوا يضربون بعصيتهم الخبط ، وهو ورق السلم ، ويبلونه بالماء فيأكلونه ...

وكانوا بسلوكلهم هذا يمثلون نمونجاً للجهاد الخالص ، والصبر على الجوع والعناء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وبالفعل ، فقد كانت رحمة الله وتكريمه لهم بأية من عنده ، تجلّت فى وقت الشدّة الذى كانوا يعيشونه جوعاً ومعاناة .

يقول جابر بن عبد الله ، لقد انطلقنا على ساحل البحر- يقصد البحر الأحمر طريق القوافل - فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكتيب الضخم ، أى رأوا كياناً ضخماً يشبه الكتيب وهو مرتفع متعرج من الرمال تصنعه الريح فى الصحراء ، فأتيناها فإذا هى دابة تدعى العنبر .

وتأمل وصفه للحوت الضخم أو السمكة الضخمة العظيمة بالدابة التي تدعى العنبر ويتخذ من جلدها الترسة . ويبلغ طولها أحيانا ما يزيد على الثلاثين متراً بمقاييس أيامنا هذه ، أو الخمسين ذراعاً بمقاييس ذلك الزمان الذي عاشه الصحابة . إن العنبر أو الحوت اسم جنس لما عظم من السمك . والتشبيه يشير إلى ضخامته وأهمية هذه الضخامة في توفير الطعام لثلاثمائة من المجاهدين ، عاشوا عليه شهراً ، بعد أن جففوه ، وجعلوه صالحاً للبقاء فترة طويلة دون أن يفسد . ويلاحظ أن أبا عبيدة حين رأى الحوت ؛ قال : ميتة . ثم قال : لا ، بل نحن رسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم فكلوا . وكأنه استشعر حرجاً في تناول الحوت ، واجتهد بالاضطرار ، ولكننا سنجد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول ما معناه : أحل لكم ميتتان ودمان . فأما الميتتان فالسمك والجراد والدمان الكبد والطحال . ولذا فالحوت حلال طالما لم يتعفن أو يفسد .

ويحكى جابر عن ضخامة الحوت ، وما فعله المسلمون في سبيل الاستفادة منه وإستخدامه تمويلاً لجيشهم الكبير، فقد كان الصحابة يغرّفون الدهن من عينيه أو وقب عينيه تحديداً ، والوقب هو داخل العين ، ويقتطعون منه الفدر ، جمع فدر ، وهي قطع اللحم وغيرها التي يأخذونها من الحوت، كأنه ثور أو حيوان ذبيح يقطعونه ويقسمون أوصاله فيما بينهم .

ويبين لنا جابر أن الصحابة رضوا الله عليهم جعلوا يتزودون من الحوت ومن لحمه وشائق ، أى قطعاً من اللحم المغلى دون أن ينضج ، ويحملونه في سفرهم يتزودون به طعاماً حينما يحتاجون .

ولحم الوشائق يشبه القديد الذي كان العرب يحتفظون به عقب موسم الحج خاصة وذلك بتعريض اللحوم والأضاحى خاصة للشمس حتى تجف ، وتظل عندهم

فترة طويلة يتزودون منها ويأكلون...بيد أن الوشائق لا تعرض للشمس وإن كانت تتعرض للغلى .

وَجَدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تَعاطُفاً ومشاركة من الرسول -صلى الله عليه وسلم -
بوصفه القائد الأعلى للجيش الذى يتكون من الصحابة رضوان الله عليهم . فحينما قدموا المدينة ورجعوا من بعثتهم، وذكروا له قصة الحوت وما فعلوه به، فإنه -صلى الله عليه وسلم- يقول لهم :

" هو رزق أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ "

وكأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤسسيهم أولاً على ما كابدوه من مشقة الجوع والحرمان فى بداية البعثة ، وصبرهم على الشدائد ، ويهنئهم ثانياً على رحمة الله وكرمه وعطفهم عليهم بهذه الآية التى ظهرت وسط المعمة ، وهى وجود الحوت لحما طرياً سائغاً، ويقرهم ثالثاً على تناوله والاستفادة منه، فهو ليست ميتة محرمة كما تصور أبو عبيدة ، واجتهد فى أكلها مضطراً .

إن قصة البعثة وعناها الذى كابدته ، والآية الإلهية التى تجلت فى الشدة ، لتؤكد على أن الولاء لله خير وأبقى فى كل زمان ومكان ، وأولياء الله لن يضيعوا أبداً مهما تكاثرت عليهم المصاعب والمتاعب والمحن .

القصاص حياة

القصاص حياة !

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : عدا يهودى فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على جارية، فأخذ أَوْضَاحاً كانت عليها ، ورضخ رأسها، فأتى بها أهلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى فى آخر رمق، وقد أصممت. فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " **من قتلك ؟ فلان ؟** " لغير الذى قتلها .

فأشارت برأسها : أن لا .

قال : فقال لرجل آخر - غير الذى قتلها ، فأشارت : أن لا .

فقال : " **ففلان ؟** " لقاتلها ، فأشارت أن نعم .

فأمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرضخ رأسه بين حجرين .

وفى رواية أخرى :

فلم يزل به حتى أقرّ، فُرِضَ رأسه بالحجارة .

(حديث صحيح ، أخرجه البخارى و آخرون)

.....

.....

تقدم لنا هذه القصة النبوية ، منهجاً فى العدل والاستقرار ، يجب أن يسوء المجتمع الإسلامى ، بل كل المجتمعات ، حتى يأمن الإنسان على نفسه، ويعمّ السلام الاجتماعى ويعيش الناس بعيداً عن المخاوف والقلق والاضطراب .

وفى القصة نموذج للعدوان والردّ عليه بمثله ، فقد اعتدى رجل على امرأة بقصد السرقة ، ولم يكتف بالسرقة بل قام بقتلها ، فالجريمة هنا عدوان على المجتمع بأسره؛ وليس على جارية أو امرأة ، وهو ما جعل القصاص منه أمراً طبيعياً ، حتى تصفو نفوس أهل القتيلة ، ويطمئن الناس إلى أن هذه الجريمة لن تتكرر مستقبلاً ، على أساس أن القصاص بقتل القاتل يجعله عبرة لغيره؛ ممن يفكر فى العدوان أو القتل وتكرار الفعل المؤثم كما يقول أهل القانون فى زماننا .

وتبدأ القصة مباشرة برواية الحدث الذي وقع ، وهو اعتداء يهودى فى عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على جارية، و الجارية هنا تعنى المرأة عموماً ، و الفتاة الشابة خصوصاً ، ولا تعنى المرأة المستترقة أو المستعبدة أو التى ضمن العبيد ، كما كان يسمح النظام الاجتماعى فى ذلك الزمان .

وعنوان اليهودى على الجارية ، كان بقصد الأوضح ، أو الحلى الفضية التى كانت تتزين بها ، وسميت هذه الحلى أوضاحاً ، لأن لونها أبيض . فالعدوان إذاً كان بقصد السرقة والاستيلاء على الفضة التى تتزين بها الجارية ، ثم إن المعتدى شعر فيما يبدو بأنه معرض للخطر إذا عرف أقارب المرأة الواحدة أو أحد من الناس بعدوانه وجريمته فأراد التخلص منها، حتى لا يعلم أحد بما فعل، فراح يرضخ رأسها ، أى يكسرها ، حتى أشرفت على الموت ، وحين أتى بها أهلها ، إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى فى آخر رمق، أى فى النزع الأخير، أو بقية الحياة والريح ، فإنها أصمتت ، أى لم تكن تستطيع الكلام ، وإن كان ذهنها واعياً يدرك ما حولها ، ويستطيع التعبير بالإشارة .

ولأن الحكم عادة ، لا يأتى إلا بعد تحقيق وتثبيت واستبانة، فقد سأله الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليعرف قاتلها . من خلال شهادتها هى أولاً : من قتلك ؟ وذكر لها اسماً من الأسماء من غير المتهمين . فأشارت برأسها لأنها لا تستطيع الكلام: أن لا . فذكر لها آخر من غير المتهمين أيضاً، فأشارت برأسها: أن لا . ثم ذكر لها اسم القاتل الحقيقى ، وهو اليهودى المعتدى : فأشارت أن نعم . وهنا تتأكد حقيقة الجانى الذى ارتكب جريمة القتل بشهادة المجنى عليه أو عليها كما يقول أهل القانون .

وتشير الرواية الأخرى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ظل يحقق مع اليهودى المعتدى حتى أقر بجريمته واعترف بها اعترافاً كاملاً ...

وهنا صدر الحكم بالقصاص منه، وقتله بالطريقة التي قتل بها الجارية، وهي

كسر رأسه حتى مات .

ولا شك أن القصاص ، أو إقامة الحد على المعتدين والمجرمين ، أو تطبيق

القانون كما نقول فى زماننا ، يشيع الأمن والطمأنينة فى المجتمع ، إذ لولا ذلك

لتشجع المجرمون والمعتدون ، واقترفوا أعمال القتل والسلب والنهب ، وسادت

شريعة الغاب فى المجتمع لا يوجد مجتمع إنسانى على ظهر الأرض إلا وفيه نظام

قانونى يعمل على حمايته وصيانة حقوقه وحقوق أفراد ، وتأمين الممتلكات

والأعراض ، فضلاً عن حفظ النفوس . وصدق الله العظيم إذ يقول :-

"فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (سورة البقرة الآية ١٧٩)

والمعنى واضح فى الآية الكريمة ، فقتل المجرم المعتدى القاتل ، يفتح مجال

الحياة أمام بقية أفراد المجتمع، وإلا لو تركناه دون عقاب، فسوف يعيث فى الأرض

فساداً ويقتل من يشاء ، ويسرق ويغتصب ويؤذى الناس ، وخاصة الذين لا يملكون

القدرة على مواجتهه والتصدى له ، ومن ثم فإن قيادة المجتمع أو سلطته الإدارية

المخولة بحكمة وتسيير أموره، يجب أن تنفذ القصاص ، وتطبق القانون على القاتل

والسارق والمختلس والمرتشى والمنحرف ، حتى يحيا المجتمع ويعيش الحياة .

غيرة و حكمة

غيرة و حكمة - ١

عن عائشة - رضی اللہ عنہا - قالت : أرسل أزواج النبی - صلی اللہ علیہ وسلم - فاطمة بنت رسول اللہ - صلی اللہ علیہ وسلم - إلى رسول اللہ - وهو مضطجع معی فی مرطی . فأذن لها : فقالت :
یا رسول اللہ ، إن أزواجك أرسلننی إلیك یسألنك العدل فی ابنة أبی قحافة ، وأنا ساكتة .

قالت : فقال لها رسول اللہ - صلی اللہ علیہ وسلم :

" **أى بنیه ...ألست تحبین ما أحب ؟** "

فقالت : بلى .

قال : " فأحبی هذه " .

قالت : فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول اللہ - صلی اللہ علیہ وسلم - فرجعت إلى أزواج النبی - صلی اللہ علیہ وسلم - فأخبرتهن بالذى قالت ، وبالذى قال لها رسول اللہ - صلی اللہ علیہ وسلم .

فقلن لها : ما نراك أغنيت عتاً من شىء ، فارجعی إلى رسول اللہ - صلی

اللہ علیہ وسلم - فقولى له : إن أزواجك ينشدنك العدل فی ابنة أبی قحافة .

فقالت فاطمة : واللہ لا أكلمه فیها أبداً

(حديث صحيح ، أخرجه البخارى و آخرون) .

.....

فى هذه القصة ملامح من ملامح الحياة فى البيت النبوى الشريف ، يقدم لنا صورة إنسانية طبيعية للصراع القائم على الغيرة بين النساء ، وهو صراع يسعى أطرافه وهن النساء الزوجات ، إلى الفوز بحظوة الزوج وحبه ، والاستئثار به .
والبيت النبوى الشريف ، ليس بدعاً فى البيوت الإسلامية بقدر ما يتحمل أفراده من المسئولية والخصوصية ، بحيث يبدو ما يجرى فيه ، مثل الذى يجرى فى

بيوت بقية المسلمين وخاصة تلك التي يكون فيها للزوج أكثر من زوجة تعيش مع الزوجة الأخرى أو الزوجات الأخريات ، فتنبغ الواحدة منهن نظيرتها ، من خلال علاقة الزوج بها ، وتقيس ما يفعله معها بما يجرى لها ، وتريد كل واحدة أن تكون مفضلة لدى الزوج ، أثيرة لديه ، وتشعر أنها الأولى ، وأنها الأعلى قدماً قبل ضررتها أو قبل الضرائر الأخريات .

وهذه طبيعة غريزية ، أو تحكها غريزة المرأة فى علاقتها مع الرجل ، فهى تغار عليه مثلما يغار عليها ، ولكن هناك فارقاً بين الغيرتين . غيرة الرجل تقوم على حماية العرض والشرف والحرمان ، ورفض العدوان بالقول أو الفعل أوحتى التلميح من جانب الآخرين ، وقد تقتضى غيرة الرجل ، أن يهبّ للدفاع عن امرأته أو نساءه بصفة عامة بوسائل قد تصل إلى الإشتباك مع المعتدين بصورة من صور الإشتباك المشروعة ، أو غير المشروعة إذا غلبته غيرته ، أو أعماه غضبه .

أما غيرة النساء ، فلها مسلك آخر ، لأنها تتغياً الاحتفاظ بالرجل والاستئثار به ومقاومة ما تقوم به الأخريات لاستمالته أو الظفر به دونهن .

ونعلم أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد تزوج أكثر من واحدة ، وجمع بينهن فى أسرته ... ومع أن التعدد كان شائعاً فى زمنه ، بل كان الأساس ، وعدم التعدد هو الاستثناء ؛ فإنه – صلى الله عليه وسلم – شهد فى بيته صراع الغيرة بين نساءه ، مثلما تشهد بيوت المسلمين من صراع مماثل .

والمشكلة هنا ، أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان يميل بعاطفته وقلبه إلى السيدة عائشة رضى الله عنها ، دون أن يخل ذلك بعدله بين بقية نساءه ، وهذا الميل كان يثير ثائرة بقية زوجاته – صلى الله عليه وسلم – وهو ما دفعهن إلى الشكوى ، وإرسال فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – إليه ، بوصفها أحب بناته إليه ، لتبلغه رسالتهن وهى مساواتهن بعائشة رضى الله عنها .

وقد أمر الإسلام بالعدل بين الزوجات ، وإن تعذر العدل فالإكتفاء بواحدة ،
أو ما ملكت الأيمان ، فى عهد وجود الرقيق . إذاً العدل أساس فى الأسرة المتعددة
الزوجات : بقوله تعالى : -

" وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ
وَتِلْكَتَ وَرَبْعًا ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ
أَلَّا تَعُولُوا" (سورة النساء الآية ٤)

ويقول تعالى :-

" وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۚ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهَا كَالْمَعْلَقَةِ ۚ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا
(سورة النساء الآية ١٢٩)

وضع الإسلام العدل معياراً ، وقد طبقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين
زوجاته ، فهو يساوى بينهن فى الأفعال والأقوال ، والإنفاق والمبيت ، وكل ما يمكن
تقسيمه بينهن ... أما ما يتعلق بالعاطفة ، والميل والقلب ، فهو شىء لا يمكن السيطرة
عليه ، ولا يمتلكه النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا غيره من الناس ، وسبحان مقلب
القلوب ، فهى لا تخضع لمقياس ولا معيار ، لحكمة يعلمها سبحانه ... ومن ثم ، فقد
كان ميله أو حبه لعائشة رضى الله عنهما ، أكثر من غيرها من الزوجات ، هو ما
أثارهن عليه وأرسلن إليه فاطمة الزهراء برسالتهن التى نقلتها ونقلت الإجابة
عنها التى لم تعجبهن .

غيرة و حكمة - ٢

رفضت فاطمة الزهراء أن تعود مرة أخرى برسالة زوجات النبي - صلى الله عليه وسلم - إليه مرة أخرى ، وقالت : والله لا أكلمه فيها أبداً .

قالت عائشة : فأرسل أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش زوج النبي - صلى الله عليه وسلم ، وهى التى كانت تسامينى منهن فى المنزلة عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب ، وأتقى لله وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى تصدق به ، وتقرب به إلى الله تعالى ، ماعدا سورة من حدّة كانت فيها ، تسرح منها الفيئة .

قالت : فاستأذنت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع عائشة فى مرطها على الحالة التى دخلت فاطمة عليها وهو بها ، فأذن لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

- يا رسول الله ، إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة .
قالت : ثم وقعت بى ، فاستطالت على ، وأنا أرقب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل يأذن لى فيها ؟

قالت : فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يكره أن أنتصر .

قالت: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتبسم: "إنها ابنة أبى بكر".

.....

.....

حين ذهبت فاطمة الزهراء إلى أبيها المصطفى - صلى الله عليه وسلم - تنقل إليه رسالة أزواجه يسألنه العدل فى ابنة أبى قحافة ، أى عائشة ابنة أبى بكر رضى الله عنهما ؛ فقد أجابها إجابة منطقية هادئة ، من خلال سعة صدره وحبّه لابنته ، ورغبته فى إقناعها ، كى تنقل إلى أزواجه الإجابة المطلوبة .

لقد سأل فاطمة : أى بنية ، أأست تحبين ما أحبّ؟ !

فأجابته : بلى ، أى نعم .

قال: فأحبنى هذه، فى إشارة إلى عائشة، التى يحبها رسول الله-صلى الله عليه وسلم أخبرت فاطمة الزوجات بهذه الإجابة ، ولكنهن لم يقتنعن ، وطلبن منها أن تعود ثانية إلى أبيها وتنقل إليه الرسالة ، ولكنها رفضت ، لأنها وجدت الإجابة التى حملتها من قبل مقنعة للغاية ولا مزيد عليها .

بيد أن الزوجات أرسلن زينب بنت جحش رضى الله عنها ، فقد كانت مكانتها أو منزلتها تقترب من منزلة عائشة - رضى الله عنها - لدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو تسامىها كما عبرت عائشة . فاستأذنت ودخلت عليهما ، وعائشة فى مرطها أى فى كسائها أو غطائها من الحرير أو الصوف ، وعرضت رسالة الزوجات ، وحاولت أن تنال من عائشة والاستطالة عليها . وعائشة تنظر وتراقب النبى - صلى الله عليه وسلم - هل يسمح لها بالرد على زينب ؟ ولم تمهلها عائشة ، فردت عليها وغلبتها ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يبتسم ويقول : إنها ابنة أبى بكر؟ وكأنه يقول لزينب : من أجل أبى بكر فإنه يسمح لعائشة أن ترد على ما قيل عنها ، ويحق لها أن تكون فى مجال الأولوية القلبية على بقية الأزواج .

بيد أننا نلاحظ أن عائشة فى غمرة انفعالها بسبب غيره الأزواج منها ، تقدم شهادة فى غاية الصدق والموضوعية عن ضررتها زينب بنت جحش - رضى الله عنها - فهى تصفها بأنها خيراً امرأة رأتها دينا ، وتقوى لله ، وصدقاً فى الحديث ، وصلة للرحم ، بل إنها أعظم صدقة ، واشد ابتداءً لنفسها فى العمل الذى تصدق به ، وتقرب به إلى الله تعالى ..

ومع هذه الميزات الطيبة العظيمة، فإن عائشة تشير إلى بعض العيوب أو السلبيات التي تراها في زينب بنت جحش، حيث تراها سريعة الغضب، ولكنها ترجع إلى الحق بسرعة أيضا ولا تصرّ على غضبها. وهو ما عبرت عنه عائشة بقولها: "ما عدا سورة من حدة كانت فيها، تسرع منها الفيئة"، وتقصد بالسورة الثوران وسرعة الغضب والحدة: هي الشدة. والفيئة هي الرجوع عن الغضب.

إن القصة النبوية تتناول الطبيعة الإنسانية عند النساء، من خلال الغيرة، وهي أمر مفهوم، أدركه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعامل معه بوصفه أمراً طبيعياً واقعاً، وعالجه بالصبر والمنطق والابتسام أيضاً، فهو لم يقصر تجاه واحد منها فيما يمكن قسمته بل ساوى بينهم، وعدل، وهو ما لا ينكرنه ولا يستطعن، ولكنهن كن يبحثن عن مجال آخر للعدل لا يمكن للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا غيره من البشر أن يتدخل فيه وهو القلب "أو" "العاطفة". ومع ذلك فإنه يحدث زينب بنت جحش حديث المنطق الذي يشيد بقدرتها على الفهم وحسن التقدير، حين يقول لها: إنها ابنة أبي بكر، وهو ما فهمته زينب، واقتنعت به، ورجعت إلى الأزواج تقنعهن، وتسترضيهن، وتهديء من تأثرتهن.

ولنا بعد هذا. أن تقدر أن غيرة الأزواج كانت نابعة من شدة حبهن للزوج، وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي غيرة موجودة لدى كل النساء بوصفها مسألة طبيعية حتى في بيت النبوة، ولكنها تقف في إطارها، وتترجع بفضل الحكمة والمنطق والصبر الجميل.

الهجرة إلى المدينة

الهجرة إلى المدينة - ١

عن عائشة -رضى الله عنها- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- قال للمسلمين:
"إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهى الحرتان، فهاجر من هاجر
قبل المدينة، وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم:

" على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى "

فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ **قال :** "نعم " .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليصحبه، وعلف
راحلتين ، كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر.

فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى
بكر: هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها؟!
فقال أبو بكر: فداءً له أبى وأمى ، والله ما جاء فى هذه الساعة إلا أمر.

قالت عائشة : فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستأذن ، فأذن
له فدخل .فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبى بكر: أخرج من عندك " فقال
أبو بكر: إنما هم أهلك . بأبى أنت يا رسول الله !!

قال : " فإنى أذن لى فى الخروج " **فقال أبو بكر :** الصحبة يا رسول
الله . **بأبى أنت يا رسول الله ؟**
قال : "نعم "

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من
الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ .

وقال أبو بكر: فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين، فقال
رسول الله -صلى الله عليه وسلم: **"بالمثمن"**..... (حديث صحيح أخرجه البخارى و آخرون).

.....

هذه قصة واقعية تكتمل فيها عناصر القصة والتشويق، حيث تبدو أعرب من
الخيال، لما جرى فيها من معجزات وخوارق، عبرت عن صدق الرسالة والرسول،

وصورت طاقة الإيمان حين تتحول من التصور النظرى إلى التطبيق العملى، فتكشف عن صلابة الإيمان وقوة العقيدة، ونصرة الله التى لا تتخلف لعبادة المؤمنين الصادقين، وهزيمته لأعدائه الكافرين المعتدين .

وهذا الجزء من القصة يمثل البداية للمرحلة العملية للهجرة النبوية المباركة، والانتقال من الموطن الأول للدعوة وهو مكة إلى الموطن الثانى وهو المدينة المنورة أو يثرب كما كانت تعرف قبل الهجرة ..

لقد سبقت الهجرة أحداثٌ مهدت لها ، وجعلتها أمراً لا مفر منه ، فقد ضاقت مكة بالمسلمين ضيق وجود و حركة ، وعُذّب المسلمون وضيق عليهم لدرجة أن أبا بكر وجد ابن الدغنة يتخلى عن جواره و حمايته بسبب ضغوط قريش ، ولكن أبا بكر المؤمن بربه رء عليه جواره ورضى بجوار الله عزوجل .

ثم إن النبى -صلى الله عليه وسلم- وجد من أهل المدينة استعداداً لنصرته وحمايته حين يقرر الهجرة إليهم...ومن ثم كانت بشارته للمسلمين بأنه رأى دار هجرتهم ووصفها بأنها ذات نخل بين لابتَيْن ، وهما حرتان جمع حرة أى أرض حجارتها سود .. وكان ذلك إيذاناً بالهجرة لعامة المسلمين كى يتجهوا نحو المدينة .

أما أبو بكر - رضى الله عنه فقد تجهز ليهاجر، ولكن الرسول -صلى الله عليه وسلم- استبقاه ليهاجر معه . قائلاً له : على رسلك ، أى على مهلك ، أو انتظر فإنى أرجو أن يؤذن لى ، أى يؤذن له بالهجرة ، وهو ما أفرح أبا بكر ، وجعله يحبس نفسه، أى يمنع نفسه من الهجرة حتى يكون بصحبة النبى - صلى الله عليه وسلم ، وأعد راحلتين وعلفهما بوريق السمر ، أى الورق الذى يسقط من الشجر لمدة أربعة أشهر ، حتى جاء موعد الهجرة .

فى وقت الظهرية اللاfach شديد الحرّ ، ذهب الرسول - صلى الله عليه وسلم - متقنعا ، أى يلبس غطاء على رأسه ، ويفهم أبو بكر أن مجىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الوقت إنما هو لأمر خطير غير عادى . فقد كان من عادته ألا

يزور أبا بكر في مثل هذا الوقت ، ولكن أبا بكر صاحب الصدوق يعلن أنه يفتيه
بأبيه و أمه ..

ويعلمنا النبي – صلى الله عليه وسلم – درساً في السلوك و التهذيب ، وهو
الاستئذان ، ومع ماله من علاقة حميمة مع أبي بكر ، فإنه يستأذن ، ويؤذن له ، ولأن
الأمر خطير يطلب منه أن يخرج من عنده ، فيدعوله أبو بكر ، بعد أن يخبره أنهم
أهله .. وحينئذ يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم :

" **فإني أذن لي في الخروج** " فيطلب أبو بكر الصحبة ..

وتخبرنا عائشة – رضی اللہ عنہا – أنها ما رأت أحداً يبكي من الفرح مثل
أبي بكر ، وهو بكاء يدل على الإخلاص ، والصدق في الصحبة الذي ستدل عليه
أحداث أخرى في قصة الهجرة من بينها التنازل عن إحدى الراحلتين للرسول –
صلى الله عليه وسلم – ولكنه لا يقبل التنازل ويأخذها بالثمن . حتى لا يثقل على
صاحبه الصديق ، وتبدأ رحلة تغيير وجه الحياة في الجزيرة العربية والعالم !!

الهجرة إلى المدينة - ٢ -

تقول عائشة - رضى الله عنها - بعد أن قصّت مقدمات الهجرة ،
ووصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى بيت أبي بكر معلنا الإذن
بالهجرة :

" فجهزناهم أحتّ الجهان ، وصنعنا لهم سفرة في جراب ، فقطعت أسماء
بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات
النطاقين . قالت : ثم لحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر بغار جبل
ثور ، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو غلام شاب
ثقفٌ لِقْنٌ فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ ، فلا يسمع أمراً
يُكتادان به إلا وعاه ؛ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما
عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ، فيريحها عليهما حيث يذهب ساعة من
العشاء ، فيبيتان في رسل ؛ وهو لبن منحتهما ، ورضيفهما حتى ينق بهما عامر بن
فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاثة .

واستأجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْلِ
هادياً خَرَيْتاً والخَرَيْت الماهر بالهداية - قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل
السهمي ، وهو على دين كفار قريش فأمناه ، فدفعنا إليه راحلتيهما ، ووعداه غار ثور
بعد ثلاث ليالٍ براحتيهما صُبح ثلاثٍ ، فانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل ،
فأخذ بهم طريق السواحل "

.....

لم تكن الهجرة النبوية الشريفة عملاً ارتجالياً أو اعتباطياً ، ولكنه عمل قام
على التخطيط والسرية والاعتماد على الله .

التخطيط بدأ قبل الهجرة بزمان طويل ، من خلال التعاهد مع أهل المدينة الأنصار واتصل مع تنفيذها. والسريّة، تتمثل في حرص الرسول-صلى الله عليه وسلم- على إخبار أبي بكر وحده دون غيره ، بأمر الهجرة و موعدها .
والاعتماد على الله تتمثل في اختراق الحصار الذى فرّض على بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - لقتله والانتهاه من أمره ، ثم استمر الاعتماد على الله طوال الرحلة ومع مخاطرها .

وعائشة - رضى الله عنها - تحكى كيف بدأ تجهيز المهاجرين ، وإعداد الزّد الذى يحتاجه فى رحلتها فقد وضع الزّد فى جراب ، وربط فم الجراب بقطعة من نطاق أسماء بنت أبى بكر ، وهو لذلك سُمّيت بذات النطاقين ..

انطلقت الرحلة ، واتجه النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر إلى غار ثور فى جبل يسمّى جبل ثور ، قضيا فيه ثلاث ليال ، وكان يبيت عندهما ، عبد الله بن أبى بكر ، وهو غلام شاب ثقف لِقْنٌ، أى شاب حاذق سريع الفهم، فيدلج من عندهما بسحر ، أى يخرج فى الجزء الأخير من الليل ، ويكون فى الصباح مع قريش بمكة كأنّه بائت فيها ، ويحفظ ويعى ما تكيد قريش للنبى - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه ، فينقله حين يذهب فى المساء إليهما .

ولا ريب أن وجود شاب مثل عبد الله بن أبى بكر ، هو من التخطيط الجيّد لرحلة الهجرة ، ويصبّ فى إطار السريّة ، ومعرفة نوايا العدو واتجاهاته ، فهو عند المهاجرين ليلاً ومع المشركين صباحاً يعرف ما يقولون ويكيدون وينقله ، وقد وصفته عائشة وهى من أعرف الناس به لأنه أخوها ، بأنه شاب ثقف لِقْن ، أى يملك الذكاء والوعى والحرص .

ومثل عبد الله بن أبى بكر ، شاب آخر من موالى أبى بكر ، هو عامر بن فهيرة ويقوم بدوره فى التخطيط المحكم لرحلة الهجرة . فقد كان عامر يعى منحة من غنم

والمنحة اسم للشاة ، وكان رعيه قريباً من المهاجرين العظيمين لملاحظتهما، والتمويه على وجودهما فى ظل الملاحقة التى تقوم بها قريش الكافرة.. كان عامر يترك أغنامه وفى المساء يصيح بها ويزجرها لتتحرك فى الظلام ، وكان يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث فيحقق تمويهاً جيداً، من ناحية يبعد الشبهة عن وجود المهاجرين العظيمين فى هذا المكان الذى يرمى به، ومن ناحية أخرى يوفر لهما اللبث غذاء وشبعاً .

ثم إن النبى - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه أبا بكر قد استأجرا دليلاً ومرشداً يهديهما فى طريقهما ، ويقودهما إلى طريق النجاة ، وهو المسمى الهادى الخريّت أى الماهر فى الهداية والارشاد وكان هذا الدليل من بنى الدئل بينه وبين آل العاص بن وائل السهمى حلفاً ، وكانت عادة العرب إذا أقاموا حلفاً غمسوا أيمنهم فى طيب أو دم وقد آمنه المهاجران العظيمان ، وقاد راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحليتهما ..ومن هناك انطلق الراكب المهاجر يقوده الدليل ومعه عامر بن فهيرة ، واتخذ الراكب طريقاً غير معتادٍ للسفر إلى المدينة أو يثرب ، وهو طريق السواحل أو الطريق الساحلى ، وكان ذلك زيادة فى التمويه والتخفى حتى لا يصيب الراكب المهاجر أندى من قريش ، ومن رجالها الذين يطاردونه ويلاحقونه ...

لقد كانت خطة الهجرة محكمة . فالسريّة كانت العنصر الأساسى الذى حكم حركة المهاجرين العظيمين ، وكان التمويه واتخاذ الأعوان الفاهمين الحاذقين ، والسير فى طريق غير مألوفة ، عناصر أخرى تكمل الخطة وتساعد على تنفيذها ، وكان الله من حول الجميع حافظاً ، تتدخل إرادته عند الشدة وهو ما جرى عندما لحق بالراكب سراقه بن مالك يريد به الأندى !

الهجرة إلى المدينة - ٣

تواصل عائشة رضى الله عنها سر قصة الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة ، بعد إعداد الרכب المهاجر وتجهيزه ، وخرجه إلى غار ثور ، وتمويه الإقامة به واتخاذ الدليل والمرشد ، و بدء السير نحو يثرب عن طريق الساحل. يقول ابن سراقه بن مالك :
جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس من مجالس قومى بنى مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقه ، إنى قد رأيت أنفا أسودة بالساحل أراها محمد وأصحابه. قال سراقه : فعرفت أنهم هم . فقلت له : إنهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا . انطلقوا بأعيننا ، ثم لبست فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى ، وهى من وراء أكمة ، فتحبسها على ، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت وخفضت عليه حتى أتيت فرسى فركبتها ، فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى ، فخررت عنها ، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها أضرهم أم لا ، فخرج الذى أكره فركبت فرسى ، وعصيت الأزام ، تقرب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ؛ ساخت يدا فرسى فى الأرض ، حتى بلغت الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقيمت بالأزام ، فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - **فقلت له** : إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزد ، والمتاع فلم يرزأنى ، ولم يسألانى إلا أن **قال** : " أخف عنا "

هذه قصة أخرى فى سياق القصة الكبرى للهجرة النبوية المباركة تكشف عن أحوال النفس البشرية حين تصطرع فى داخلها رغبة الخير مع رغبة الشر.. الأمل فى الحصول على متاع الدنيا وعرضها ، والرجوع إلى الحق والإيمان به... إنها قصة سراقبة بن مالك الذى عرف نية قريش فى ملاحقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والظفر به وتصفيته ، واستعانت على ذلك بالإغراء ، ودفع دية ، أى قدر دية رجل لمن يقتل الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - ودية أخرى مماثلة لمن يقتل صاحبه.. ويكون هذا الإغراء دافعاً لسراقبة بن مالك كى يأخذ فرسه ويتسلل فى الخفاء ليلحق الركب المهاجر ويظفر به ويحصل على الدية الموعودة .

لقد سمع سراقبة قريشاً تتآمر، وجاء رجل منهم، يخاطب سراقبة: إني قد رأيت أنفا أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه..ويقصد بالأسودة الأشخاص الذين يراهم الناظر عن بعد . ومع أن سراقبة عرف أنهم الركب المهاجر، إلا أنه نفى ذلك الرجل ، وأسّر شيئاً فى نفسه، وقام بتنفيذه ، حيث ركب فرسه وأخذ رمحه وانطلق فى إثر الركب المهاجر، ودفع بفرسه لتسرع به ، وتقربه منهم ، فلما دنا وصار قاب قوسين ، تعثرت به الفرس وسقط من فوقها ، فقام ومدّ يده إلى كنانته أى خزنة السهام التى معه واستخرج منها الأزلام، وهى القداح المخصصة لمعرفة الخير والشر ، أو النفع والضرب مفهوم الجاهلية، وقد نهى عنه القرآن الكريم ووصفها بالفسق، قال تعالى :-

"...وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ... (سورة المائدة من الآية ٣)

ولكن سراقبة لجأ إلى عملية الاستقسام، ليعلم هل يواصل طريقه فى أثر الركب المهاجر أم يرجع . وخرج له السهم الذى يريته عن متابعة غايته ، وهو أمر يكرهه ، فخالف القداح أو الأزلام ، وتابع السير فى أثر المهاجرين ، وأخذ يبحث فرسه حتى سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقرأ دون أن يلتفت. أما أبو بكر -رضى الله عنه-

فكان كثير الالتفات ، خشية أن يصيبهم مكروه أو أذى ممن يتربصون بهم ، وهو ما يدل على إخلاص الصديق وحرصه الشديد على النبي – صلى الله عليه وسلم .

بيد أن الفرس ساخت مرة أخرى، وغاصت أرجلها فى الأرض، وسقط سراقه من فوقها، ولكنه نهض وزجرها فقامت وانتشر غبار ساطع من يديها الأماميتين أى قدميها الأماميتين ، ملاً السماء كأنه الدخان : فعاد سراقه إلى أزماله مرة أخرى واستقسمها فخرج له الذى يكره ، أى العودة عن متابعة الراكب المهاجر..وهنا تتغير نفسيته ويتحول من الرغبة فى كسب الجائزة التى قررتها قریش ، إلى شىء آخر.. هو الإيمان بالنبي – صلى الله عليه وسلم والدين الذى أتى به .. فإذا به ينادى الراكب المهاجر بالأمان ، فيتوقفوا حتى يصل إليهم ، ويخاطب النبي – صلى الله عليه وسلم – **قائلاً:** إن قومك قد جعلوا فيك الدية – أى مائة من الإبل عن كل شخص – ثم أخبرهم ما يريد الناس بهم أى ما تريد قریش بهم من أذى وضرر ، وعرض عليهم الرذ والمناج ، فلم يعاتبه النبي – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه ، ولكنه قال له :

" **أخف عنا** " ، أى لا تذع سرنا حتى لا تعلم قریش بأمرنا .

فسأله أن يكتب له كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة ، فكتب له على رقعة من أدم أى جلد ؛ الكتاب الذى أراد ، ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

إن قصة سراقه عن الإعجاز الإلهي ، فى مواجهة مخططات الكفر ، والتدخل لنصرة النبي – صلى الله عليه وسلم – فى وقت صعب وحر ، وتأكيد على صدق الرسالة والرسول ، وهو ما جعل الفرس تسوخ فى الأرض مرتين ، وتملاً الدنيا غباراً ، ويشعر سراقه أن الدين الجديد سيظهر على الناس .

الهجرة إلى المدينة - ٤

وتستمر عائشة -رضي الله عنها- في سرد قصة الهجرة النبوية المباركة بعد أن تحوّل سراقه بن مالك وعاد من حيث أتى ، فتقول :

قال عروة بن الزبير رحمه الله : فلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر ثياب بياض ، ويسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة ، فينتظرونه حتى يردهم حرّ الظهيرة ، فانطلقوا بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما أوزوا إلى بيوتهم ، أوفى رجل من اليهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه فبصر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مُبَيّضين ، يزل بهم السراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته :

يا معشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بظهر الحرّة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل في بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبل أبو بكر حتى ظللّ عليه برائه ، فعرف الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك

.....

هذه مرحلة أخرى من مراحل قصة الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة المنورة ، تأتي بعد مراحل المطاردة والملاحقة التي عاشها الركب المهاجر ، وبعد حصار بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة الهجرة، وخروجه من قلب الحصار المشدّد وفقاً للإعجاز الإلهي والنصرة الربانية .

"وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"

(سورة يس الآية ٩)

كانت الرحلة مثيرة ، فقد تتبّع المشركون الركب المهاجر ، وهو يختبئ في غار ثور ، وتتبعوه وهو يمضى على طريق السواحل غير المعتاد عن طريق سراقه بن مالك ، ثم جاءت المرحلة الأخيرة التي شعر فيها الركب بالأمان وهو يقترب من المدينة ، ويصل إلى مشارفها ...

فى المرحلة الأخيرة، لقى الركب المهاجر ركبا آخر من المسلمين عائداً من رحلة تجارية كانت فى الشام، وكان فى هذا الركب الزبير بن العوام، الصحابى الجليل المعروف الذى قام بكسوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبا بكر -رضى الله عنه- ثياباً بيضاء، تكريماً لهما وتقديراً..

نشعر أننا نأخذ أن أحداث القصة بعد أن وصلت إلى ذروتها أخذت تنحل شيئاً فشيئاً وتتبين ملامح المستقبل ، ونقترب من المدينة ، حيث علم أهلها بخروج النبى -صلى الله عليه وسلم- من مكة، وقدمه إلى المدينة ، وكانوا يترقبون وصوله للترحيب به ، ونيل شرف استقباله.. كانوا يذهبون كل صباح إلى الحرّة أو الأرض السواء ينتظرونه حتى الظهيرة ، حيث يشتد الهجير فيعودون إلى بيوتهم هرباً من الحرب بعد طول انتظار.. على أمل أن يكرروا المحاولة فى اليوم التالى ..

بيد أن رجلاً من اليهود كان قد أوفى على أطم من أطامهم ، أى طلع إلى أعلى حصن من حصون اليهود لأمر ما ، يريد أن ينظر إليه ، فإذا به يبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فى ثيابهم البيضاء ، فى قلب السراب ، فلم يملك نفسه إلا أن قال بأعلى صوته :

يا معشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، أى حظكم وصاحب دولتكم الذى تنتظرونه وشاءت إرادة الله أن يكون اليهودى هو أول من يرى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ويبشرون المسلمين فى المدينة بقدمه ، وينطق بما حاول اليهودى إخفائه فيما بعد، حين يشير إلى أنه الرجل الذى ينتظرونه ويتوقعونه ويعلقون عليه كبير الآمال ، وإن لم يشر إلى نبوته ورسالته ...

كانت بشارة اليهودى بمقدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - علامة فرح وابتهاج ، حيث نهض المسلمون إلى سلاحهم، وخرجوا إلى ظهر الحرّة للقاء الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وحين استقبلوه ، انعطف بهم نحو اليمين لينزل فى بنى عمرو بن عوف ، وليجتمع الأنصار حوله لتحيته وإعلان بهجتهم بقدمه .

وفى هذا الموقف يتجلى جانب الوفاء والحب الذى يملكه أبو بكر رضى الله عنه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تجلى فى مواقف سابقة ولاحقة ، فقد جلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - صامتا ، وأخذ من يأتى من الأنصار ممن لم يرا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقام أبو بكر ، وظلله برنائه ليحميه من الشمس وحرّها .. وعندئذ عرف الناس أن من يظله أبو بكر هو الرسول -صلى الله عليه وسلم .

وفى بنى عوف ، كانت بداية جديدة ، وعالم جديد .

الهجرة إلى المدينة - ٥

تختتم عائشة - رضى الله عنها - قصة الهجرة المباركة ، بعد وصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى مشارف المدينة ، و نزوله فى بنى عمرو بن عوف فتقول :

"فلبت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى بنى عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ركب راحلته فصار يمشى معه الناس ، حتى بركت عند مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مرينداً للتمر لسهيل و سهل غلامين يتيمين فى حجر سعد بن زارة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بركت راحلته :

" هذا إن شاء الله المنزل " .

ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغلامين فساومهما بالبريد ليتخذنه مسجداً ، فقالا : لا بل نهبه لك يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً ، وطفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول :

هذا الحملال لا حمال خير هذا أبر رنا و أظهر
اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار و المهاجر

صدق رسول الله

.....

هذا ختام قصة الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة المنورة ، وهو ختام يقدم لنا الأساس الأول فى بناء المجتمع الإسلامى بل الدولة الإسلامية ، وهو المسجد فى الإسلام ليس مجرد مكان يلتقى فيه الناس فرادى أو مجتمعين لأداء الصلوات الخمس كل يوم وليلة ولكنه شعاع النور والخير والوحدة فى المجتمع الإسلامى .

لقد قضى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يزيد عن عشرة ليال فى بنى عمرو بن عوف ، ثم كان أول عمل قام به فى دار الهجرة الجديدة هو بناء المسجد الذى أسس على التقوى . وقد أشار إليه القرآن الكريم فى مواجهة مسجد آخر ، هو مسجد الضار والكفر

الذى يفرّق المسلمين وتحكمه وسوسات الشيطان والصد عن سبيل الله أو محاربة الله
ورسوله ، مع أن أصحابه يزعمون أنهم يقصدون الخير.

قال تعالى :

"وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْجَبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ" (سورة التوبة الآيات ١٠٧-١٠٨)

كان هذا المسجد هو مسجد قباء ، أول مسجد بناه الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فى المدينة وصلى فيه..ثم ركب راحلته والناس يمشون معه، حتى بركت عند المسجد النبوى
الحالى بالمدينة ..

وقصة بناء هذا المسجد تقدم لنا درساً فى العطف والرحمة والشفقة التى تحلى بها
الرسول الأعظم -صلى الله عليه وسلم- لقد بركت الناقة عند مكان المسجد، وكان يصلى فيه
رجال من المسلمين . والكان كان مزبداً للتمر، أى يجف فيه التمر، ويملكه غلامان
يتيمان اسمهما "سهيل و سهيل" يعيشان عند سعد بن زُرارة ، وقال الرسول - صلى الله
عليه وسلم - عن المكان عندما بركت فيه راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل" ولنتأمل
استخدام الرسول-صلى الله عليه وسلم- صيغة المشيئة، ليعلمنا أن أمر المسلم مرتبط دائماً
بالله فى حركته وسكونه ، وعمله وعبادته، فهو يأخذ بالأسباب ويعتمد على ربه، ثم يكل
المشيئة إليه ولتكن النتائج ما تكون، فهى مقدرة بقدر الله الذى لا يتخلف .

لقد استدعى الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الغلامين ، وطلب منهما بيع
المزبذ ليقوم عليه المسجد ، ولكنهما رفضا ، وقالا للرسول - صلى الله عليه وسلم - بل نهبه
لك ، ولكنه أبى ورفض أن يقبل الهبة ، وأصر على شرائه منهما ، ثم بناه .. ومن ثم ، كان
الرسول القدوة يضرب المثل فى رحمته وشفقته وبره بهذين الغلامين اليتيمين ، وإصراره

على ابتياع الأرض وعدم قبولها هبة .. كما نراه - صلى الله عليه وسلم - يضرب المثل والقُدوة فى مشاركته مع الصحابة فى بناء المسجد ونقل الطوب اللين الذى صنع من الطين الذى لم يحرق ، وإنشأوه معهم بما يخفف عنهم عناء العمل ومشقته .

إن قصة الهجرة تكشف معانى كثيرة . وتقدم دروساً عديدة ، فى مقدمتها أن الإيمان الحقيقى يفرض على صاحبه التضحية فى سبيله ، مهما غلت هذه التضحية وارتفعت تكاليفها مثل مفارقة الوطن والاهل والأصحاب. كما تخبرنا هذه القصة أن الإيمان الحقيقى موعود أصحابه بالنصرة الإلهية والدعم الربانى .

قال تعالى :-

"إِلَّا تَصْرُوهُ فَقَدَ نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعَلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (سورة التوبة الآية ٤٠)

ثم إن أبرز دروس هذه القصة الأخذ بالأسباب وضرورة التخطيط والسرية عند اللزوم وهو ما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - كى ينجح عمله وتتحقق خطته فى الهجرة .
أيضاً ، فإن إخلاص الصحاب وصدقه ومحبته من أهم العناوين فى علاقة أبى بكر - رضى الله عنه - بالرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهى نموذج لكل علاقة تقوم على المحبة فى الله ومن أجل الله ، وأنعم بها من محبة . وبالله التوفيق .

اتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى إن شاء الله تعالى .